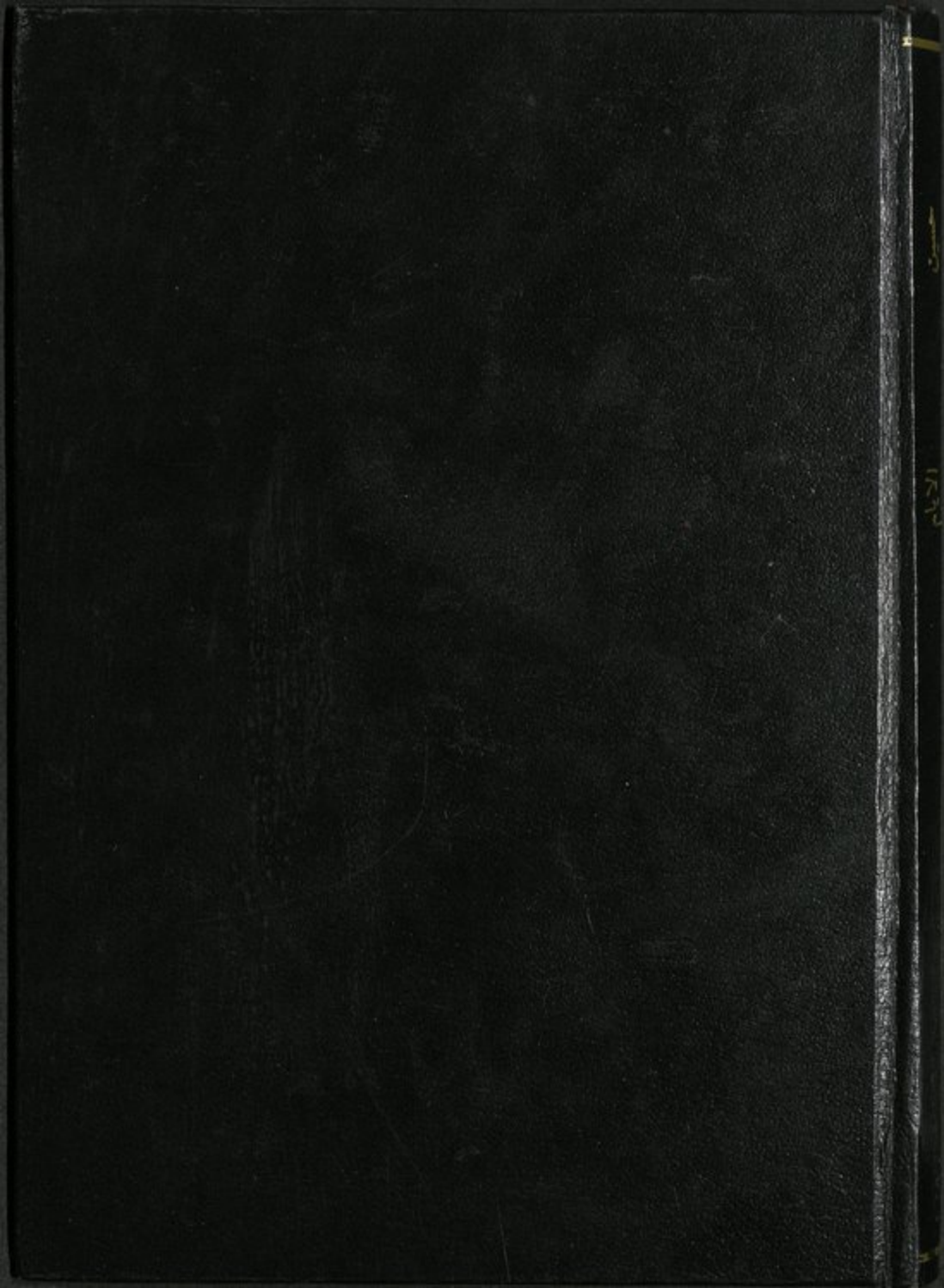


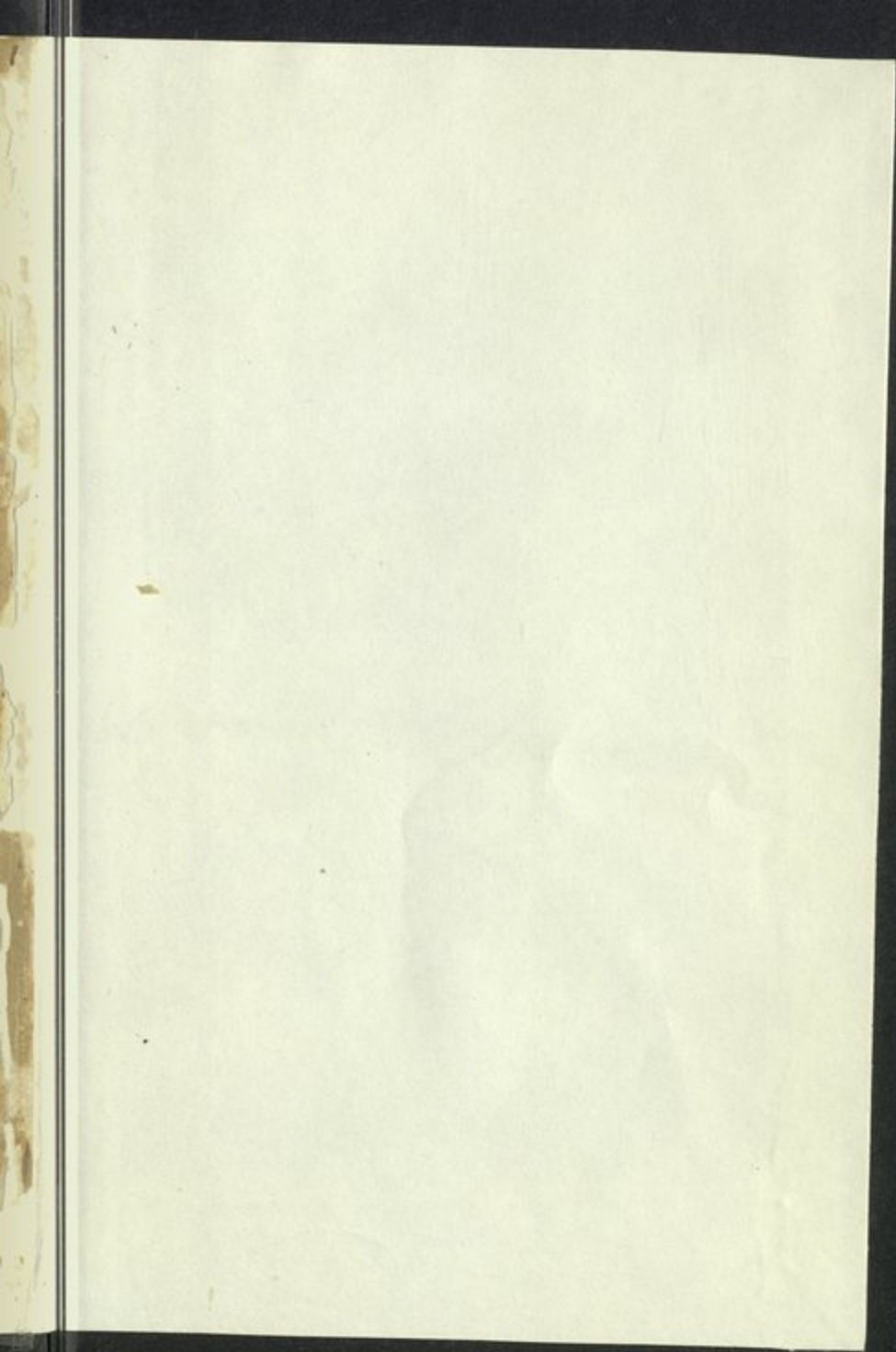


A.M.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY



کتاب مرآة

طه حسین

892.78
No 3924 A
4947
v. 1

الله



مکتبہ العجم و العرب
دار المعارف بمبئی

1:55-2194

١

لا يذكر لهذا اليوم اسماً ، ولا يستطيع أن يضعه حيث
 وضعه الله في الشهر والسنة ، بل لا يستطيع أن يذكر من
 هذا اليوم وقتاً بعينه ، وإنما يقرب ذلك تقريباً .
 وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في جره
 أو في عشائه . يرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك
 الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به
 حرارة الشمس . ويرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور
 والظلمة ، يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نوراً
 هادئاً خفيفاً لطيفاً كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه . ثم
 يرجع ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا

الضياء لم يؤنس من حوله حركة يقظة قوية ، وإنما آنس
 حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه . وإذا كان قد بقي له
 من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها ،
 فإنما هي ذكرى هذا السياج الذى كان يقوم أمامه من القصب ،
 والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار . هو
 يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس . يذكر أن قصب هذا
 السياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن
 يتخطاه إلى ما وراءه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان
 مقرباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ في
 ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله
 إلى حيث لا يعلم له نهاية ، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا
 من هذه الناحية . وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً ؛
 فقد كانت تنتهى إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ،
 وكان لها في حياته — أو قل في خياله — تأثير عظيم .

يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرانب التى
 كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثباً

من فوقه ، أو انسياً بين قصبه ، إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر . يذكر منه الكرنب خاصة .

ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعتشى الناس ، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مغرقاً في التفكير ، حتى يردّه إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم في نعمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارون ويختصمون ، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغظهم بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير .

ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرة لازعة ؛ لأنه كان يقدّر أن سيُقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى ، فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثأمة ، وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على

نُخذُ أمه ، ثم تعد هذه إلى عينيهِ المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى ، وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه ولا يجدى عليه خيراً ، وهو يَألم ولكنه لا يشكو ولا يبكي ؛ لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاءً شكاءً .

ثم يُنقل إلى زاوية في حجرة صغيرة ، فتنبه أخته على حصار قد بُسِطَ عليها لحاف ، وتلقى عليه لحافاً آخر ، وتذره وإن في نفسه لحسرات ، وإنه ليمد سمعه مدّاً يكاد يخترق به الحائط لعله يستطيع أن يصله بهذه النفثات الحلوة التي يرددها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء . ثم يأخذه النوم ، فما يحس إلا وقد استيقظ والناس نيام ، ومن حوله إخوته وأخواته يغطّون فيسرفون في الغطيط ، فيلقى اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد ؛ لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه . وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف ، فلا بد من أن يعبت به عفريت من العفاريات الكثيرة التي كانت تعمر أقطار البيت وتبلاً أرجاءه ونواحيه ، والتي كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب

الناس . فإذا أوت الشمس إلى كهفها ، والناس إلى مضاجعهم ،
وأطفئت السرج ، وهدأت الأصوات ، صعدت هذه
العفاريات من تحت الأرض وملأت الفضاء حركةً واضطراباً
وتهامساً وصياحاً .

وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح
الدجاج ، ويجهد في أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة . فأما
بعضها فكانت أصوات ديك حقا ، وأما بعضها الآخر فكانت
أصوات عفاريات تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثاً وكيداً .
ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها ، لأنها كانت تصل
إليه من بعيد ، إنما كان يخاف الخوف كله أصواتاً أخرى
لم يكن يتبينها إلا بمشقة وجهه ، كانت تنبعث من زوايا
الحجرة نحيفة ضئيلة ، يمثل بعضها أزيز الرجل يغلي على النار ،
ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ينقل من مكان إلى
مكان ، ويمثل بعضها خشباً ينقصم أو عوداً ينحطم .

وكان يخاف أشد الخوف أشخاصاً يتمثلها قد وقفت على
باب الحجرة فسدته سداً ، وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه

شئ بمحركات المتصوفة في حلقات الذكر . وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة ، إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم ، دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذاً أو ثغرة . وكان واثقاً أنه إن ترك ثغرة في لحافه فلا بد من أن تمتد منها يد عفريت إلى جسمه فتنااله بالغمز والعبث .

لذلك كان يقضى ليله خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً . كان يستيقظ مبكراً ، أو قل كان يستيقظ في السحر ، ويقضى شطراً طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت ، حتى إذا وصلت إلى سمعه أصوات النساء يعدن إلى بيوتهن وقد ملأن جزارهن من القناة وهن يتغنين « الله يا ليل الله . . . » عرف أنه قد بزغ الفجر ، وأن قد هبطت العفاريت إلى مستقرها من الأرض السفلى ، فاستحال هو عفريتاً ، وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت عال ، ويتغنى بما حفظ من نشيد الشاعر ، ويغمز من حوله من إخوته وأخواته ، حتى يوقظهم واحداً واحداً . فإذا تم

له ذلك ، فهناك الصباح والغناء ، وهناك الضجيج والعجيج ،
وهناك الضوضاء التي لم يكن يضع لها حداً إلا نهوض الشيخ
من سريره ، ودعاؤه بالإبريق ليتوضأ .

حينئذ تخفت الأصوات وتهدأ الحركة ، حتى يتوضأ
الشيخ ويصليّ ويقرأ ورده ويشرب قهوته ويعضى إلى عمله .
فإذا أغلق الباب من دونه نهضت الجماعة كلها من الفراش ،
وانسابت في البيت صائحة لاعبة ، حتى تختلط بما في البيت
من طير وماشية .



كان مطمئناً إلى أن الدنيا تنتهي عن عيئه بهذه القناة التي
 لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة ولم لا وهو
 لم يكن يرى عرض هذه القناة ، ولم يكن يقدر أن هذا العرض
 ضئيل بحيث يستطيع الشاب النشيط أن يثب من إحدى
 الحافتين فيبلغ الأخرى . ولم يكن يقدر أن حياة الناس
 والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة على نحو ما هي
 من دونها . ولم يكن يقدر أن الرجل يستطيع أن يعبر هذه
 القناة ممتلئة دون أن يبلغ الماء إبطيه . ولم يكن يقدر أن الماء
 ينقطع من حين إلى حين عن هذه القناة ، فإذا هي حفرة
 مستطيلة يعبث فيها الصبيان ، ويبحثون في أرضها الرخوة
 عما تخلف من صغار السمك فمات لا تقطاع الماء عنه .
 لم يكن يقدر هذا كله ، وإنما كان يعلم يقيناً لا يخالطه
 الظن ، أن هذه القناة عالم آخر مستقل عن العالم الذي كان



مجلسی نظامیہ کے ایک جلسہ میں ایک شخص نے کہا کہ

يعيش فيه ، تعمره كائنات غريبة مختلفة لا تكاد تحصى :
منها التماسيح التى تردرد الناس ازدرادًا ، ومنها المسحورون
الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسواد الليل ، حتى إذا
أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسمون الهواء ، وهم حين
يطفون خطر على الأطفال وفتنة للرجال والنساء . ومنها
هذه الأسماك الطوال العراض التى لا تكاد تظفر بطفل حتى
تردده ازدرادًا ، والتى قد يتاح لبعض الأطفال أن يظفروا
فى بطونها بخاتم الملك ، ذلك الخاتم الذى لا يكاد الإنسان
يديره فى أصبعه حتى يسعى إليه دون ملح البصر خادمان من
الجن يقضيان له ما يشاء ، ذلك الخاتم الذى كان يتختمه سليمان
فيسخر له الجن والريح وما يشاء من قوى الطبيعة . وما كان
أحب إليه أن يهبط فى هذه القناة لعل سمكة من هذه
الأسماك تردده فيظفر فى بطنها بهذا الخاتم ؛ فقد كانت
حاجته إليه شديدة ألم يكن يطمع على أقل تقدير
فى أن يحمله أحد هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة
ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب ؟ ولكنه كان يخشى

كثيراً من الأحوال قبل أن يصل إلى هذه السمكة المباركة .
على أنه لم يكن يستطيع أن يبلو من شاطئ هذه القناة
مسافة بعيدة ؛ فقد كان هذا الشاطئ محفوقاً عن يمينه وعن
شماله بالخطر . فأما عن يمينه فقد كان هناك العدويون ، وهم قوم
من الصعيديين يقيمون في دار لهم كبيرة ، يقوم على بابها دائماً
كلبان عظيمان لا ينقطع نباحهما ، ولا تنقطع أحاديث الناس
عنهما ، ولا ينجو المارة منهم إلا بعد عناء ومشقة . وأما عن
شماله فقد كانت هناك خيام يقيم فيها « سعيد الأعرابي »
الذي كان الناس يتحدثون بشره ومكره وحرصه على سفك
الدماء ، وامراته « كوابس » التي كانت قد اتخذت في أنفها
حلقة من الذهب كبيرة ، والتي كانت تختلف إلى الدار
وتقبل صاحبنا من حين إلى حين فيؤذيه خزامها ويروعه .
وكان أخوف الأشياء إليه أن يتقدم عن يمينه فيتعرض للكلبي
العدويين ، أو يتقدم عن شماله فيتعرض لشر « سعيد »
وامراته « كوابس » .

على أنه كان يجد في هذه الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة

من كل ناحية ضروباً من اللهو والعبث تملأ نهاره كله .
ولكن ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قل إن ذاكرة الإنسان
غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة ؛ فهي تتمثل
بعض هذه الحوادث واضحاً جلياً كأن لم يمض بينها وبينه من
الوقت شيء ، ثم يمحي منها بعضها الآخر كأن لم يكن بينها
وبينه عهد .

يذكر صاحبنا السياج ، والمزرعة التي كانت تنبسط من
ورائه ، والقناة التي كانت تنتهي إليها الدنيا ، و « سعيداً »
و « كوابس » وكلاب العدويين ، ولكنه يحاول أن يتذكر
مصير هذا كله فلا يظفر من ذلك بشيء . وكأنه قد نام ذات
ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً
ولا كوابس ، وإنما رأى مكان السياج والمزرعة بيوتاً قاعة
وشوارع منظمة ، تنحدر كلها من جسر القناة ممتدة امتداداً
قصيراً من الشمال إلى الجنوب . وهو يذكر كثيراً من الذين
كانوا يسكنون هذه البيوت رجالاً ونساء ، ومن الأطفال
الذين كانوا لعبثون في هذه الشوارع .

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدم يمينا وشمالا على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدوين أو مكر سعيد وامراته . وهو يذكر أنه كان يقضى ساعات من نهاره على شاطئ القناة سعيدا مبتهجا بما يسمع من نغمات « حسن » الشاعر يتغنى بشعره في أبي زيد وخليفة ودياب ، حين يرفع الماء بشادوفه ليسقى به زرعه على الشاطئ الآخر للقناة . وهو يذكر أنه استطاع غير مرة أن يعبر هذه القناة على كتف أحد إخوته دون أن يحتاج إلى خاتم الملك ، وأنه ذهب غير مرة إلى حيث كانت تقوم وراء القناة شجرات من التوت فأكل من ثمراتها ثمرات لذينة . وهو يذكر أنه تقدم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلم وأكل فيها غير مرة تفاحا ، وقطف له فيها غير مرة نعناع وريحان . ولكنه عاجز كل العجز أن يتذكر كيف استحالت الحال وتغير وجه الأرض من طوره الأول إلى هذا الطور الجديد . **لما**

كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر
من أشقته . وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من
الشباب والأطفال مكاناً خاصاً يمتاز من مكان إخوته وأخواته .
أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين
ذلك إلا في غموض وإبهام . والحق أنه لا يستطيع الآن أن
يحكم في ذلك حكماً صادقاً . كان يحس من أمه رحمة ورأفة ،
وكان يجد من أبيه ليناً ورفقاً ، وكان يشعر من إخوته بشيء
من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له . ولكنه كان يجد إلى
جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئاً من الإهمال
أحياناً ، ومن الغلظة أحياناً أخرى . وكان يجد إلى جانب هذا
اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً والازورار من
وقت إلى وقت . وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ؛ لأنه كان
يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيء من الازدراء .

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ؛ فقد أحس أن
غيره من الناس عليه فضلاً ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون
ما لا يستطيع ، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له . وأحس
أن أمه تأذن لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه ، وكان
ذلك يُحْفَظُهُ . ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى
حزن صامت عميق . ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له
به ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى .



كان من أول أمره طُلْعَةً ، لا يحفل بما يلقي من الأمر
 في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم . وكان ذلك يكلفه كثيراً
 من الألم والعناء . ولكن حادثة واحدة حدثت ميله إلى
 الاستطلاع ، وملأت قلبه حياء لم يفارقه إلى الآن . كان جالسا
 إلى العشاء بين إخوته وأبيه ، وكانت أمه كعادتها تشرف على
 حفلة الطعام ، ترشد الخادم وترشد أخواته اللاتي كن يشاركن
 الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون . وكان يأكل كما
 يأكل الناس . ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب ! ما الذي
 يقع لو أنه أخذ اللقمة بكتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد
 واحدة ؟ وما الذي يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شيء ، وإذا
 فقد أخذ اللقمة بكتا يديه ونمستها من الطبق المشترك ثم رفعها
 إلى فمه . فأما إخوته فأغرقوا في الضحك . وأما أمه فأجهشت
 بالبكاء . وأما أبوه فقال في صوت هادئ حزين : ما هكذا

تؤخذ اللقمة يا بُنَيَّ . . وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته .
من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والإشفاق
والحياء لا حدّ له . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية .
ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبيح له
إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين . حرم على نفسه الحساء
والأرز ، وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق ؛ لأنه كان يعرف
أنه لا يحسن اصطناع الملعقة ، وكان يكره أن يضحك إخوته ،
أو تبكي أمه ، أو يعلمه أبوه في هدوء حزين .

هذه الحادثة أعانت على أن يفهم حقاً ما يتحدث به الرواة
عن أبي العلاء من أنه أكل ذات يوم دبساً ، فسقط بعضه
على صدره وهو لا يدري ، فلما خرج إلى الدرس قال له بعض
تلاميذه : يا سيدي أكلت دبساً ؛ فأسرع بيده إلى صدره
وقال : نعم ! قاتل الله الشره ! ثم حرّم الدبس على نفسه
طوال الحياة .

وأعانت هذه الحادثة على أن يفهم طوراً من أطوار
أبي العلاء حق الفهم . ذلك أن أبا العلاء كان يتستر في أكله

حتى على خادمه ؛ فقد كان يأكل في نفق تحت الأرض ، وكان يأمر خادمه أن يعدّ له طعامه في هذا النفق ثم يخرج ، ويخلو هو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهي . وقد زعموا أن تلاميذه تذاكروا مرة بطيخ حلب وجودته ، فتكلف أبو العلاء وأرسل إلى حلب من اشترى لهم منه شيئاً ، فأكلوا واحتفظ الخادم لسيدة بشيء من البطيخ وضعه في النفق ، وكأنه لم يضعه في المكان الذي تعود أن يضع فيه طعام الشيخ ، وكره الشيخ أن يسأل عن حظه من البطيخ ، فلبث البطيخ في مكانه حتى فسد ولم يذقه الشيخ .

ففيهم صاحبنا هذه الأطوار من حياة أبي العلاء حق الفهم لأنه رأى نفسه فيها . فكيف كان يتمنى طفلاً لو استطاع أن يخلو إلى طعامه ، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يعلن إلى أهله هذه الرغبة . على أنه خلا إلى بعض الطعام أحياناً كثيرة ، ذلك في شهر رمضان وفي أيام المواسم الحافلة ، حين كان أهله يتخذون ألواناً من الطعام حلوة ، ولكنها تؤكل بالملاعق ، فكان يأبى أن يصيب منها على المائدة . وكانت أمه تكره له

هذا الحرمان ، فكانت تُفرد له طبقاً خاصاً وتخلي بينه وبينه في حجرة خاصة ، يغلقها هو من دونه حتى لا يستطيع أحد أن يشرف عليه وهو يأكل .

على أنه عند ما استطاع أن يملك أمر نفسه اتخذ هذه الخطة له نظاماً . بدأ بذلك حين سافر إلى أوروبا لأول مرة ، فتكلف التعب وأبى أن يذهب إلى مائدة السفينة ، فكان يحمل إليه الطعام في غرفته . ثم وصل إلى فرنسا ، فكانت قاعدته إذا نزل في فندق أو في أسرة أن يحمل إليه الطعام في غرفته دون أن يتكلف الذهاب إلى المائدة العامة . ولم يترك هذه العادة إلا حين خطب قرينته ، فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألفها .

هذه الحادثة أخذته بألوان من الشدة في حياته ، جعلته مضرب المثل في الأسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية . كان قليل الأكل لا لأنه كان قليل الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه إخوته وقد آلمه ذلك أول الأمر ،

ولكنه لم يلبث أن تعودته حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل
كما يأكل الناس . كان يسرف في تصغير اللقمة ، وكان له عم
يغيظه منه ذلك كلما رآه ، فيغضب وينهره ويلح عليه في تكبير
اللقمة ، فيضحك إخوته . وكان ذلك سبباً في أن كره عمه
كرهاً شديداً . كان يستحي أن يشرب على المائدة مخافة أن
يضطرب القدر من يده ، أو ألا يحسن تناوله حين يقدم إليه ،
فكان طعامه جافاً ما جلس على المائدة ، حتى إذا نهض عنها
ليغسل يديه من حنفية كانت هناك شرب من ماؤها ما شاء الله
أن يشرب . ولم يكن هذا الماء تقياً دائماً ، ولم يكن هذا النوع
من رى الظماً ملائماً للصحة ، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح
معموداً ، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سبباً .

ثم حرّم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شيء ،
إلا ما لا يكلفه عناء ولا يعرضه للضحك أو الإشفاق . فكان
أحب اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحي بها زاوية
من البيت ، فيجمعها ويفرقها ويقرّع بعضها ببعض ، ينفق
في ذلك ساعات ، حتى إذا سئمه وقف على إخوته أو أترابه

وهم يلعبون ، فشاركهم في اللعب بعقله لا ييده . وكذلك
عرف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بخط . وانصرافه
هذا عن العبث حبَّب إليه لوناً من ألوان اللهو ، هو الاستماع
إلى القصص والأحاديث ؛ فكان أحبَّ شيء إليه أن يسمع
إنشاد الشاعر ، أو حديث الرجال إلى أبيه ، والنساء إلى أمه .
ومن هنا تعلم حسن الاستماع . وكان أبوه وطائفة من أصحابه
يحبون القصص حبًّا جمًّا ، فإذا صلو العصر اجتمعوا إلى واحد
منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح ، وأخبار غنتره
والظاهر بيبرس ، وأخبار الأنبياء والنسك والصالحين ، وكتباً
في الوعظ والسنن . وكان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب
وهم عنه غافلون ، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع ، بل لم يكن
غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر .
فإذا غربت الشمس تفرَّق القوم إلى طعامهم ، حتى إذا صلو
العشاء اجتمعوا فتحدثوا طرفاً من الليل ، وأقبل الشاعر فأخذ
ينشدهم أخبار الهلايين والزنايتين ، وصاحبنا جالس يسمع في
أول الليل كما كان يسمع في آخر النهار .

حبيب حسن

والنساء في قرى مصر لا يحبين الصمت ولا يعلن إليه ؛
 فإذا خلت إحداهن إلى نفسها ولم تجد من تتحدث إليه ، تحدثت
 إلى نفسها ألواناً من الحديث ، ففنت إن كانت فرحة ،
 وعددت إن كانت محزونة . وكل امرأة في مصر محزونة حين
 تريد . وأحب شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن
 يذكرن آلامهن وموتاهن فيعددن ، وكثيراً ما ينتهي هذا
 التعدد إلى البكاء حقاً . وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع
 إلى أخواته وهن يتغنين ، وإلى أمه وهي تعدد . وكان غناء
 أخواته يغيظه ولا يترك في نفسه أثراً ؛ لأنه كان يجده سخيلاً
 لا يدل على شيء ، في حين كان تعدد أمه يهزه هزاً عنيفاً ،
 وكثيراً ما كان يبكيه . وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيراً
 من الأغاني وكثيراً من التعدد ، وكثيراً من جد القصص
 وهزله ، وحفظ شيئاً آخر لم تكن بينه وبين هذا كله صلة ،
 وهي الأوراد التي كان يتلوها جدّه الشيخ الضرير إذا أصبح
 أو أمسى .

انعام من
القارئ

كان جدّه هذا ثقیل الظل بغيضاً إليه ، وكان يقضى في

البيت فصل الشتاء من كل سنة ، وكان قد صلح ونسك حين
اضطرتته الحياة إلى الصلاح والنسك ، فكان يصلي الخمس
لأوقاتها ، ولم يكن لسانه يفتقر عن ذكر الله . وكان يستيقظ
آخر الليل ليقرأ « ورد السحر » . وكان ينام في ساعة متأخرة
بعد أن يصلي العشاء ويقرأ ألواناً من الأوراد والأدعية . وكان
صاحبنا ينام في حجرة مجاورة لحجرة هذا الشيخ ، فكان يسمعه
وهو يتلو ، وكان يحفظ ما يتلو ، حتى حفظ من هذه الأوراد
والأدعية شيئاً كثيراً . وكان أهل القرية يحبون التصوف
ويقيمون الأذكار ، وكان صاحبنا يحب منهم ذلك ؛ لأنه كان
يلهو بهذا الذكر وبما ينشده المنشدون أثناءه . ولم يبلغ التاسعة
من عمره حتى كان قد وعى من الأغاني والتعديد والقصص
وشعر المهالين والزنايتين والأوراد والأدعية وأنشيد الصوفية
جملة صالحة ، وحفظ إلى ذلك كله القرآن .

تكملة



ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف
 بدأه ولا كيف أعاده ، وإن كان يذكر من حياته في الكتاب
 مواقف كثيرة ، منها ما يضحك الآن ، ومنها ما يحزنه : يذكر
 أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولا على كتف أحد
 أخويه ؛ لأن الكتاب كان بعيداً ، ولأنه كان أضعف من أن
 يقطع ماشياً تلك المسافة . ثم يذكر متى بدأ يسعى إلى
 الكتاب . ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين
 يدي « سيدنا » ومن حوله طائفة من النعال ، كان يعبت
 ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع . وكان
 « سيدنا » جالساً على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية
 ولا بالمنخفضة ، قد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب ،
 بحيث يمر كل داخل « بسيدنا » . وكان « سيدنا » قد تعود متى
 دخل الكتاب أن يخلع عباءته . أو بعبارة أدق « دِفِيتُهُ »



ويلفها لفاً يجعلها في شكل المحدة ، ويضعها عن يمينه ، ثم يخلع نعله
ويتربع على ذكته ، ويشعل سيجارته ، ويبدأ في نداء الأسماء .
وكان « سيدنا » لا يعنى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بدءاً : كان
يرقعهما من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت . وكان
إذا أخلت به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتّاب وأخذ
النعل بيده وقال له : تذهب إلى « الحزين » وهو هنا
قريب ، فتقول له : « يقول لك سيدنا إن هذه النعل في حاجة
إلى لوزة من الناحية اليمنى » . انظر ! أترى ؟ هنا حيث أضع
أصبعي ! فيقول لك « الحزين » : « نعم سأضع لك هذه اللوزة » .
فتقول له : « يقول لك سيدنا يجب أن تتخير الجلد متيناً غليظاً
جديداً ، وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر ، أو بحيث لا يكاد
يظهر » ، فيقول لك : « نعم سأفعل هذا » . فتقول له : « ويقول
لك سيدنا : إنه عميلك منذ زمن طويل ، فاستوص بالأجر
خيراً » . ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش ، ثم عد إلى
مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها . وينطلق الصبي ويلهو عنه
سيدنا ، ثم يعود وقد أغمض سيدنا عينه وفتحها مرة ومرة ومرة .

على أن الرجل كان يستطيع أن يُغمض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً ؛ فقد كان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينيه ، يمثل له الأشباح دون أن يمكنه أن يميزها . وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل .. وكان يخدع نفسه ويظن أنه من المبصرين ... ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه ، يمسك ذراعيه على كتفي كل واحد منهما ، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا ! قد أخذوها على المارة ، حتى إنهم ليتنحّون لهم عنها .

وكان منظر سيدنا عجيباً في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت صباحاً ومساءً . كان ضخمًا بادناً ، وكانت دفيته تزيد من ضخامته . وكان كما قدمنا يمسك ذراعيه على كتفي رفيقيه . وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً . وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتاً . ذلك أنه كان يُحبُّ الغناء ، وكان يُحبُّ أن يعلم تلاميذه الغناء ، وكان يتخير الطريق لهذا الدرس .

فكان يغنى ويأخذ رفيقه بمصاحبه حيناً ، والاستماع له
حيناً آخر ، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه
هو والرفيق الآخر . وكان سيدنا لا يغنى بصوته ولسانه
وحدهما ، وإنما يغنى برأسه وبدنه أيضاً ؛ فكان رأسه يهبط
ويصعد ، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً . وكان سيدنا يغنى
بيديه أيضاً ؛ فكان يُوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه .
وكان سيدنا يعجبه « الدور » أحياناً ، ويرى أن المشى لا يلائمه
فيقف حتى يتمه . وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى
صوته جميلاً . وما يظن صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من
صوته . وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل : « إن أنكر
الأصوات لصوت الحمير » إلا ذكر سيدنا وهو يُوقع آياتاً
من « البردة » في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر
أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتاب .

يرى صاحبنا نفسه ، كما قدمنا ، جالساً على الأرض يعبت
بالنعال من حوله ، وسيدنا يقرئه سورة الرحمن ، ولكنه
لا يذكر أكان يقرأها باديئاً أم معيداً .

وكأنه يرى نفسه مرة أخرى جالساً لا على الأرض ولا بين
النعال ، بل عن يمين سيدنا على ذكّة أخرى طويلة ، وسيدنا
يقرئه : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . وأكبر ظنه أنه كان قد أتم القرآن بدءاً
وأخذ يعيده . وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ
القرآن ؛ فقد أتم حفظه ولما يتم التاسعة من عمره . وهو يذكر
في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن . ذلك أن
سيدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن ،
وعن أن أباه سيتهج به ، وكان يضع لذلك شروطاً ويطالب
بحقوقه . ألم يكن قد علم قبل صاحبنا أربعة من إخوته ذهب
واحد منهم إلى الأزهر ، والآخرين إلى المدارس ، وصاحبنا
هو الخامس . . . فكم لسيدنا على الأسرة من حقوق ! وحقوق
سيدنا على الأسرة كانت تتمثل دائماً طعاماً وشراباً ولباساً ومالاً .
فأما الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فمشورة
دسمة قبل كل شيء ، ثم جبة وقفطان ، وزوج من الأحذية ،
وطربوش مغربي ، وطاقيّة من هذا القماش الذي تتخذ منه العمام ،

وجنيه أحمر ، لا يرضى بشيء دون ذلك . . . فإذا لم يؤدَّ إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة ، ولا يقبل منها شيئاً ، ولا صلة بينه وبينها ، وهو يقسم على ذلك بمحرجات الأيمان . وكان هذا اليوم يوم الأربعاء ، وكان سيدنا قد أنبأ في الصباح بأن صاحبنا سيختم القرآن في هذا اليوم . وأقبلوا في العصر ، يمشى سيدنا معتمداً على رفيقيه ، ويمشى صاحبنا من ورائه يقوده يتيماً من أيتام القرية . حتى إذا بلغوا البيت دفع سيدنا الباب دفعاً ، وصاح صيحته المعتادة : « يا سَتَّار » ، واتجه إلى المنطرة ، فإذا فيها الشيخ قد انقلب من صلاة العصر وهو يقرأ شيئاً من الأدعية كعادته ، فاستقبلهم مبتسماً مطمئناً ، وكان صوته هادئاً ، وكان صوت سيدنا عالياً ، وكان صاحبنا لا يقول شيئاً ، وكان اليتيم مبتهجاً . أجلس الشيخ سيدنا ورفيقه ، ووضع في يد اليتيم قطعة من فضة ، ودعا الخادم وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يصيب شيئاً من الطعام ، ومسح على رأس ابنه وقال : « ففتح الله عليك ! انصرف إلى أمك ، وقل لها إن سيدنا هنا . » وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا ، وكانت قد أعدت له

مجلس

انصرف

ما لا بد منه في مثل هذا الوقت ، وهو كوز ضخم طويل من السكر المذاب لا شيء عليه . أُخرج إلى سيدنا هذا الكوز فعبه عباً ، وشرب رفيقاه كوين من السكر المذاب أيضاً . ثم أخرجت القهوة فشربها سيدنا مع الشيخ . وكان سيدنا يلح على الشيخ في أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن ، وكان الشيخ يجيب : « دعه يلعب إنه صغير » . ثم نهض سيدنا لينصرف ، فقال له الشيخ : « نصلي المغرب معاً إن شاء الله » . وكانت هذه هي الدعوة إلى العشاء . وما أحسب أن سيدنا نال شيئاً آخر أجراً على ختم صاحبنا للقرآن ؛ فقد كان يعرف الأسرة منذ عشرين سنة ، وكان له فيها عادات غير مقطوعة ، وكانت الكلفة بينه وبينها مرفوعة ، وكان واثقاً أن الحظ إن أخطأه معها هذه المرة فلن يخطئه مرة أخرى .



منذ هذا اليوم أصبح صبينا شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة
 لأنه حفظ القرآن ، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن
 سنّه . دعاه أبوه شيخاً ، ودعته أمه شيخاً ، وتعود سيدنا
 أن يدعوه شيخاً أمام أبيه ، أو حين يرضى عنه ، أو حين يريد
 أن يترضاه لأمر من الأمور . فأما فيما عدا ذلك فقد كان
 يدعوه باسمه ، وربما دعاه « بالواد » . وكان شيخنا الصبي قصيراً
 نحيفاً شاحباً زريّ الهيئة على نحو ما ، ليس له من وقار الشيوخ
 ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو كثير . وكان أبواه
 يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافاه إلى اسمه
 كبراً منهما وعجباً لا تطفأ به ولا تحبباً إليه . أما هو فقد أعجبه
 هذا اللفظ في أول الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من
 مظاهر المكافأة والتشجيع . كان ينتظر أن يكون شيخاً حقاً ،
 فيتخذ العمة ويلبس الجبة والقفطان ، وكان من العسير إقناعه

مغيره

بأنه أصغر من أن يحمل العمة ، ومن أن يدخل في القفطان ...
وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن !
وكيف يكون الصغير شيخاً ! وكيف يكون من حفظ القرآن
صغيراً ! هو إذاً مظلوم ... وأى ظلم أشد من أن يحال بينه
وبين حقه في العمة والجبّة والقفطان ! ..

وما هي إلا أيام حتى سُم لقب الشيخ ، وكره أن يُدعى به ،
وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه
حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من
الكذب والعبث والخداع .

ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء للقب
الشيخ ، وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور
والعجب ، ثم لم يلبث أن نسى هذا كله فيما نسى من الأشياء .
على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يُدعى شيخاً ،
وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتاب
كما كان يذهب ، مهمل الهيئة ، على رأسه طاقيته التي تنظف
يومًا في الأسبوع ، وفي رجله حذاء يُجدد مرة في السنة ،

ولا يدعه حتى لا يحتمل شيئاً ، فإذا تركه فليمش حافياً أسبوعاً
أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء جديد . كان خليقاً بهذا كله
لأن حفظه للقرآن لم يدم طويلاً ... أ كان وحده ملوماً
في ذلك ؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيدنا ؟ الحق أن
سيدنا أهمله حيناً وعنى بغيره من الذين لم يهتموا القرآن .
أهمله ليستريح ، وأهمله لأنه لم يتقاض أجراً على ختمه للقرآن .
واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال ، وأخذ يذهب إلى الكتاب
يقضى فيه طوال النهار في راحة مطلقة ، ولعب متصل ، ينتظر
أن تنتهي السنة ويأتي أخوه الأزهرى من القاهرة ، حتى إذا
انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة ، استصعبه ليصبح شيخاً
حقاً ، وليجاور في الأزهر .

ومضى على هذا شهر وشهر وشهر ، يذهب صاحبنا إلى
الكتاب ويعود منه في غير عمل ، وهو واثق بأنه قد حفظ
القرآن ، وسيدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن ، إلى أن كان اليوم
المشئوم ... كان هذا اليوم مشئوماً حقاً ، ذاق فيه صاحبنا
لأول مرة مرارة الخزي والذلة والضعمة وكره الحياة . عاد من

الكتاب عصر ذلك اليوم مطمئناً راضياً، ولم يكذب يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ ، فأقبل عليه ومعه صديقان له . فتلقاه أبوه مبتهجاً ، وأجلسه في رفق ، وسأله أسئلة عادية ، ثم طلب إليه أن يقرأ « سورة الشعراء » . وما هي إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ، ففكر وقدّر ، وتحفّز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وسَمَّى الله الرحمن الرحيم . ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث، أولها (طسم) ، فأخذ يردّد (طسم) مرة ومرة ومرة ، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها . وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعراء ، فلم يستطع أن يتقدّم خطوة . قال أبوه : فاقراء سورة النمل . فذكر أن أول سورة النمل ، كأول سورة الشعراء (طس) وأخذ يردد هذا اللفظ ، وفتح عليه أبوه ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى ... قال أبوه : فاقراء سورة القصص ، فذكر أنها الثالثة ، وأخذ يردّد (طسم) ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة ، ولكنه قال له في هدوء : قم ؛ فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن ، فقام خجلاً يتصبّب عرقاً . وأخذ الرجلان

يعتذران عنه بالخجل وصغر السن ، ولكنه مضى لا يدري
أي يوم نفسه لأنه نسى القرآن ، أم يلوم سيدنا لأنه أهمله ، أم
يلوم أباه لأنه امتحنه ... ؟

ومهما يكن من شيء ، فقد أمسى هذا اليوم شرّ مساء ،
ولم يظهر على مائدة العشاء ، ولم يسأل عنه أبوه ، ودعته
أمه في إعراض إلى أن يتعشى معها ، فأبى . فانصرفت
عنه ونام .

ولكن هذا المساء المنكر كان في جملة خيراً من الغد .
ذهب إلى الكتاب ، فإذا سيدنا يدعوه في جفوة : ماذا حصل
بالأمس ؟ وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعراء ؟ وهل
نسيته حقاً ؟ أتلهما على ! فأخذ صاحبنا يردد (طسم) ...
وكانت له مع سيدنا قصة كقصته مع أبيه . قال سيدنا :
عوضني الله خيراً فيما أنفقت معك من وقت ، وما بذلت
في تعليمك من جهد ؛ فقد نسيت القرآن ويجب أن تعيده .
والكن الذنب ليس عليك ولا على ، وإنما هو على
أيك ؛ فلو أنه أعطاني أجرى يوم ختمت القرآن ،

لبارك الله له في حفظك ، ولكنه منعى حتى فمحا الله القرآن
من صدرك .

ثم بدأ يُقرئه القرآن من أوله ، شأنه مع من لم يكن
شيخاً ولا حافظاً .



وليس من شك في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً
 جيداً في مدة قصيرة جداً . فهو يذكر أنه عاد من الكتاب
 ذات يوم مع سيدنا ، وكان سيدنا في هذا اليوم حريصاً على أن
 يعود معه ، حتى إذا وصلوا إلى الدار عطف عليها سيدنا فدفع
 الباب فاندفع له ، وصاح صيحته المألوفة : يا ستار ! وكان
 الشيخ كعادته في المنظرة قد فرغ من صلاة العصر . فلما
 استقر سيدنا في مجلسه ، قال للشيخ : « زعمت أن ابنك قد
 نسى القرآن ، ولمتني في ذلك لوماً شديداً ، وأقسمت لك أنه
 لم ينس وإنما خجل ، فكذبني وعبثت بلحيتي هذه . وقد
 جئت اليوم لمتحن ابنك أمامي . وأنا أقسم : لأن ظهر أنه
 لا يحفظ القرآن لأحلقن لحيتي هذه ، ولأصبحن معرة الفقهاء عمار
 في هذا البلد » . قال الشيخ : « هوّن عليك ! ومالك لا تقول :
 إنه نسى القرآن ثم أقر أنه إياه مرة أخرى ؟ » قال : « أقسم

بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته ، وإنما استمعت له القرآن ،
فتلاه على كالماء الجاري ، لم يقف ولم يتردد .

وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار ، وكان مقتنعاً أن أباه محق
وأن سيدنا كاذب ، ولكنه لم يقل شيئاً. ولبت منتظراً الامتحان.

وكان الامتحان عسيراً شاقاً ، ولكن صاحبنا كان في هذا

اليوم نجيباً بارعاً ، لم يُسأل عن شيء إلا أجاب في غير تردد

وقرأ في إسراع ، حتى كان الشيخ يقول له : « على مهلك فإن

السرء الكسر في القرآن خطيئة » . حتى إذا أتم الامتحان قال له أبوه :

« فتح الله عليك ! إذهب إلى أمك فقل لها إنك حفظت

القرآن حقاً » . ذهب إلى أمه ولكنه لم يقل لها شيئاً ولم تسأله

عن شيء . وخرج سيدنا في ذلك اليوم ، ومعه جبة من الجوخ

خلعها عليه الشيخ .



وأقبل سيدنا إلى الكتاب من الغد مسروراً مبتهجاً، فدعا
 الشيخ الصبي بقلب الشيخ هذه المرة قائلاً : أما اليوم فانت
 تستحق أن تُدعى شيخاً ؛ فقد رفعت رأسى وبيّضت وجهى
 وشرّفت لحتى أمس. واضطرب أبوك إلى أن يعطينى الجبة. ولقد
 كنت تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب ، وكنت على النار
 مخافة أن تزل أو تنحرف ، وكنت أحصّيك بالحي القيوم الذى
 لا ينام ؛ حتى انتهى هذا الامتحان . وأنا أعفيك اليوم من
 القراءة ، ولكن أريد أن آخذ عليك عهداً ، فعِدنى بأن تكون
 وفياً . قال الصبي فى استحياء : « لك على الوفاء » . قال سيدنا :
 فأعطينى يدك . وأخذ بيد الصبي . فأراعى الصبي إلا شئ فى يده
 غريب ، ما أحسن مثله قط ، عريض يترجرج ، ملؤه شعر
 تغور فيه الأصابع ، ذلك أن سيدنا قد وضع يد الصبي على لحيته
 وقال : هذه لحتى أسلمك إياها ، وأريد ألا تهينها ، فقل :

نمط

حجل

شم

ينظرب

« والله العظيم ثلاثاً ، وحق القرآن المجيد لا أهيئها » .
وأقسم الصبي كما أراد سيدنا . حتى إذا فرغ من قسمه ، قال له
سيدنا : كم في القرآن من جزء ؟ قال : ثلاثون . قال سيدنا :
وكم نشغل في الكتاب من يوم ؟ قال الصبي : خمسة أيام .
قال سيدنا : فإذا أردت أن تقرأ القرآن مرة في كل أسبوع ،
فكم تقرأ من جزء كل يوم ؟ فكر الصبي قليلاً ثم قال :
سنة أجزاء . قال سيدنا : فتقسم لتتلون على العريف ستة أجزاء
من القرآن في كل يوم من أيام العمل ، وتكون هذه التلاوة
أول ما تأتي به حين تصل إلى الكتاب . فإذا فرغت منها
ذنب فلا جناح عليك أن تلهو وتلعب ، على ألا تصرف الصبيان عن
أعمالهم . . أعطى الصبي على نفسه هذا العهد . ودعا سيدنا
العريف فأخذ عليه عهداً مثله ، ليسمعن للصبي في كل يوم
سنة أجزاء من القرآن ! وأودعه شرفه ، وكرامة لحيته ، ومكانة
الكتاب في البلد ، وقبل العريف الوديعة . وانتهى هذا المنظر
وصبيان الكتاب ينظرون ويعجبون .

من ذلك اليوم انقطعت صلاة الصبي التعليمية « بسيدنا » ،
 واتصلت بالعريف . ولم يكن العريف أقل غرابة من سيدنا :
 كان شاباً طويلاً نحيفاً أسود فاحماً ، أبوه سوداني ، وأمه
 مَوْلدة ، وكان سيئ الحظ ، لم يوفق في حياته خير ، جرب
 الأعمال كلها فلم يفلح في شيء منها . أرسله أبوه عند كثير
 من الصنائع ليتعلم صنعة فلم يفلح . وحاول أن يجد له في معمل
 السكر شغل العامل أو الخفير أو البواب أو الخادم ، فلم يفلح
 في شيء من هذا . وكان أبوه ضيق الصدر به يمتقته ويزدريه ،
 ويؤثر عليه إخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون . وكان قد ينض
 ذهب إلى الكتاب في صباه فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ
 سوراً من القرآن لم يلبث أن نسيها . فلما ضاقت به الحياة
 وضاق بها أقبل إلى سيدنا فشكا إليه أمره . قال له سيدنا :
 فتعال هنا فكن عريفاً ، عليك أن تعلم الصبيان القراءة

والكتابة ، وتلاحظهم وتمنعهم من العبث ، وتقوم مقامى متى غبت ، وعلى أن أقرئهم القرآن وأحفظهم إياه . عليك أن تفتح الكتاب قبل أن تطلع الشمس ، وتشرف على تنظيفه قبل أن يحضر الصبيان . عليك أن تغلق الكتاب متى صليت العصر ، وتأخذ مفتاحه . عليك مع هذا كله أن تكون يدى اليمنى ، ولك ربع ما يأتى به الكتاب من نقد ، تقتضى ذلك فى كل أسبوع أو فى كل شهر . وتم هذا العقد بين الرجلين وقرأ عليه الفاتحة ، وبدأ العريف عمله .

وكان العريف يبعض سيدنا بغضاً شديداً ويزدرىه ، ولكنه يصانعه . وكان سيدنا يكره العريف كرهاً عنيفاً ويحتقره ، ولكنه يتملقه . *بحار ان بصره*

فأما العريف فكان يكره سيدنا ؛ لأنه أثر غشاش كذاب ، يخفى عليه بعض موارد الكتاب ، ويستأثر بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام . ويزدرىه ؛ لأنه كان ضريراً يتكلف الإبصار ، وكان قبيح الصوت يتكلف حسن الصوت . وأما سيدنا فكان يكره العريف ؛ لأنه مكار داهية ، ولأنه يخفى عليه

كثيراً مما ينبغي أن يعلمه ، ولأنه سارق ، يسرق ما يوضع بين يديهما من الطعام وقت الغداء ويختلس أطايبه ، ولأنه ياتمر مع كبار الصبيان في الكتّاب ، ويعبت معهم على غفلة منه ، فإذا ضلّت العصر وأغلق الكتّاب كان يئنه وبينهم مواعيد هناك عند شجر التوت ، أو عند « القنطرة » أو في « معمل السكر » .
ومن غريب الأمر أن الرجلين كانا صادقين مصيين ،
وأتهما كانا مضطرين إلى أن يتعاوناً على كره ومضض : أحدهما محتاج إلى أن يعيش ، والآخر محتاج إلى من يدبر له أمور الكتّاب .

اتصل صبينا بالعزيز ، وأخذ يتلو القرآن بين يديه ، ستة أجزاء في كل يوم . ولكن ذلك لم يستمر ثلاثة أيام ، ضاق الصبي بهذه التلاوة منذ اليوم الأول ، وضاق العزيز بها منذ اليوم الثاني ، وتكاشفا بهذا الضيق في اليوم الثالث واتفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبي في سره ، ستة أجزاء بين يدى العزيز ، حتى إذا أحس اضطراباً ، أو غاب عنه لفظ ، سأل عنه العزيز . وأخذ الصبي يأتي في كل يوم فيسلم على

العزيز ، ويجلس على الأرض بين يديه ، ويحرك شفتيه متمماً ^{أصابعه} كأنه يقرأ القرآن ، ويسأل العزيز من حين إلى حين عن كلمة ، فيجيبه مرة ويتأقل عنه مرة أخرى . ويأتى سيدنا فى كل يوم قبيل الظهر ؛ فإذا سلم وجلس ، كان أول عمل يأتيه أن يدعو الصبي فيسأله : أقرأت ؟

— نعم .

— من أين إلى أين ؟

وكان الصبي يجيب : من البقرة إلى « لتجدن » فى يوم السبت ، ومن « لتجدن » إلى « وما أبرئ » فى يوم الأحد . . وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلاح عليها الفقهاء ، وخص لكل يوم من الأيام الخمسة ، قسماً من هذه الأقسام يخبر به سيدنا متى سأله .

ولكن العزيز لم يكن ليكتفى بهذا الاتفاق الذى يريحه ويريح الصبي ، وإنما كان يطمع فى أن يستفيد من موقف الصبي بين يديه ، وكان ينذر الصبي من حين إلى حين ، بأنه سيخبر سيدنا ، أنه قد وجد بعض السور « متعته » عند الصبي ، « سورة هود » ، أو « سورة الأنبياء » ، أو « سورة

الأحزاب . وإذ كان القرآن كله « متعتاً » (سبي الحفظ) عند الصبي ، لأنه أهمل قراءته منذ أشهر ، فقد كان يكره أن يمتحنه سيدنا ، ويشتري صمت العريف بكل شيء . وكم دفع إلى العريف ما كان يملأ جيبه من خبز ، أو فطير ، أو تمر . . . وكم دفع إليه هذا القرش الذي كان يعطيه إياه أبوه من حين إلى حين ، والذي كان يريد أن يشتري به أقراص النعناع . وكم احتال على أمه ، ليأخذ منها قطعة ضخمة من السكر ، حتى إذا وصل إلى الكتاب دفعها إلى العريف ، وإنه ليشتريها كلها أو بعضها ، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمس فيه السكر ، ثم يمصه مصاً شديداً ، ثم يزدرد السكر وقد ذاب أو كاد . . . وكم نزل عن طعامه الذي كان يحمل إليه من البيت ظهر كل يوم ، وإنه لشديد الجوع ، لياكل العريف مكانه ؛ لئلا يخبر سيدنا بأن القرآن عنده « متعت » . . .

على أن هذه الصلوات المستمرة لم تلبث أن ضمنت له مودة العريف ؛ فقد اتخذ العريف صديقاً ، وأخذ يستصحبه إلى الجامع بعد الغداء ليصلي معه الظهر ، ثم أخذ يعتمد عليه ،

ويثق به ، ويطلب إليه أن يقرئ القرآن بعض الصبيان ،
أو يسمعه من بعض الذين أخذوا يعيدون ويحفظون . وهنا
كان صاحبنا يسلك مع تلاميذه مسلك العريف معه بالدقة :
كان يجلس الصبيان بين يديه ، ويأخذهم بالتلاوة ثم يتشاغل
عنهم بالحديث مع أترابه ، حتى إذا فرغ من حديثه ، التفت
إليهم ، فإذا آنس منهم عبثاً أو إبطاءً أو اضطراباً ، فالنذير ،
ثم الشتم ، ثم الضرب ، ثم إخبار العريف . والحق أنه لم يكن
أحسن حفظاً للقرآن من تلاميذه ، ولكن العريف قد اتخذ
معه هذه الخطة ، فيجب أن يكون هو عريفاً حقاً . وإذا
كان العريف لا يشتمه ولا يضربه ، ولا يرفع أمره إلى سيدنا ،
فذلك لأنه يدفع ثمن ذلك كله غالياً . وقد فهم الصبيان هذا
فأخذوا يدفعون له الثمن غالياً أيضاً ، وأخذ هو يسترد الرشوة
ما كان يدفع إلى العريف . على أن رشوته كانت متنوعة ؛
فلم يكن محروماً في بيته ؛ ولم يكن في حاجة إلى الخبز ولا إلى
التمر ولا إلى السكر ؛ ولم يكن يستطيع أن يقبل « الفلوس » .
وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن ينفقها وحده ؟ فهو إن

مَعْرِفَةُ مَنْ

قبلها دلّ على نفسه وافضح أمره؛ وإذا فقد كان عسيراً، وكان إرضاءه شاقاً. وكان الصبيان يتفنون في إرضائه، فيشترون له أقراص النعناع و«السكر النبات» و«اللب» و«الفول السوداني»، وكان يتفضل بكثير من ذلك على العريف.

ولكن لو نأمن الرشوة خاصاً كان يعجبه ويفتنه، ويشجعه على أن يهمل واجبه أشنع إهمال، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب. فإذا استطاع الصبي أن يقص عليه أحدىثة، أو يشتري له كتاباً من هذا الرجل الذي يتنقل بالكتب في قرى الريف، أو يتلو عليه فصلاً من قصة «الزير سالم» أو «أبي زيد»، فهو واثق بما شاء من رضاه ورفقه ومحاباته. وكان أمهر تلاميذه في هذا، صبية مكفوفة البصر، يقال لها نفيسة. أرسلها أهلها إلى الكتاب لحفظ القرآن حفظته، وأتقنت حفظه، ووكّلها سيدنا إلى العريف، ووكّلها العريف إلى صاحبنا، وأخذ صاحبنا يسلك معها مسلك العريف معه. وكان أهل هذه الفتاة أغنياء، ولكنهم من المحدثين. كان أبوها حماراً ثم أصبح تاجراً مثيراً، وكان

ينفق على أهله من غير حساب ، ويسبغ عليهم سعة غريبة
 من العيش . فلم تكن تنقطع الفلوس من يد نفيسة . وكانت
 أقدر الصبيان على تخير الرُّشا ، ثم كانت أحفظهم للقصص ،
 وأقدرهم على الاختراع ، وأحفظهم لألوان الغناء المفرح ،
 و « التعديد » المبكى ، وكانت تحسن الغناء والتعديد معاً .
 وكانت غريبة الأطوار ، في عقلها شيء من الاضطراب ،
 فكانت تلهي صاحبنا أكثر وقته بحديثها وتعديدها ، وأقاصيصها
 وألوان رشوتها . وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشي ، ويخضع
 ويخضع ، كان القرآن يمحي من صدره آية آية ، وسورة سورة ،
 حتى كان اليوم المحتوم . . . ويا له من يوم ! . . .



كان يوم الأربعاء ، وكان صاحبنا قد قضاه فرحاً مسروراً .
 زعم لسيدنا في أول النهار أنه قد أتم الختمة ، ثم فرغ بعد ذلك
 لاستماع القصص والأحاديث ، وعبث آخر النهار .

فلما انصرف من الكتاب لم يذهب إلى البيت ، وإنما
 ذهب مع جماعة من أصحابه إلى الجامع ليصلي العصر . وكان
 يحب الذهاب إلى الجامع ، والصعود في المنارة ، والاشتراك مع
 المؤذن في التسليم (وهو النداء الذي يلي الأذان الشرعي) .

ذهب في ذلك اليوم وصعد في المنارة ، واشترك في الأذان
 وصلى . وأراد أن يعود إلى البيت ، ولكنه افتقد نعله فلم يجدها .
 كان قد وضعها إلى جانب المنارة ، فلما فرغ من الصلاة ذهب
 يلتمسها فإذا هي قد سُرقت . أحزنه ذلك بعض الشيء ،
 ولكنه كان فرحاً مبهجاً هذا اليوم ، فلم يجزع ولم يقدر للأمر
 عاقبة ، وعاد إلى البيت حافياً . وما كان أبعد المسافة بين البيت



والجامع ! ولكن ذلك لم يرُعه ، فكثيراً ما مشى حافياً .
 دخل البيت ، وإذا الشيخ في المنظرة كعادته يدعوهُ :
 وأين نعلاك ؟ فيجيب : نسيتهما في الكتاب . فلا يحفل
 الشيخ بهذا الجواب ، ثم يهمل الصبي حيناً ريثما يدخل
 فيتحدث إلى أمه وإخوته قليلاً ، ويأكل كسرة من الخبز
 كان من عادته أن يأكلها متى عاد من الكتاب . ثم يدعوهُ
 الشيخ ، فيسرع إلى إجابته . فإذا استقر به مكانه ، قال له أبوه :
 ماذا تلوت اليوم من القرآن ؟ فيجيب : ختمته وتلوت الأجزاء
 الستة الأخيرة . قال الشيخ : وما زلت تحفظه حفظاً جيداً ؟
 قال نعم . قال الشيخ : فاقرأ لي سورة سبأ . وكان صاحبنا قد
 نسى سورة سبأ ، كما نسى غيرها من السور ، فلم يفتح الله عليه
 بحرف . قال الشيخ : فاقرأ سورة فاطر ، فلم يفتح الله عليه
 بحرف . قال الشيخ في هدوء وسخرية : وقد زعمت أنك
 ما زلت تحفظ القرآن ! فاقرأ سورة يس . ففتح الله عليه
 بالآيات الأولى من هذه السورة ، ولكن لسانه لم يلبث أن
 انعقد ، وريقه لم يلبث أن جف ، وأخذته رعدة منكرة تصبب

على أثرها في وجهه عرق بارد . قال الشيخ في هدوء : قم واجتهد في أن تنسى نعليك كل يوم ، فما أرى إلا أنك أضعتكما كما أضعت القرآن ، ولكن لي مع سيدك شأن آخر .

خرج صاحبنا من المنطرة منكس الرأس مضطرباً يتعثر ، ومضى في طريقه حتى وصل إلى الكرار — والكرار حجرة في البيت كانت تدخر فيها ألوان من الطعام ، وكان يربي فيها الحمام ، وكانت في زاوية من زواياها القرمة ، وهي قطعة ضخمة عريضة من الخشب كأنها جذع شجرة ، كانت أمه تقطع عليها اللحم . وكانت تدع على هذه القرمة طائفة من السكاكين ؛ منها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الثقيل ، ومنها الخفيف — مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرار ، وانعطف إلى الزاوية التي فيها القرمة ، وأهوى إلى الساطور ، وهو أغلظ ما كان عليها من سكين وأحده وأثقله ، فأخذه يمينه وأهوى به إلى قفاه ضرباً ! ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه ، وأسرعت أمه إليه ، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مرّ بها ،

فإذا هو واقف يضطرب والدم يسيل من قفاه ، والساطور ملقى إلى جانبه . . . وما أسرع ما ألقت أمه نظرة إلى الجرح ! وما أسرع ما عرفت أنه ليس شيئاً ! وما هى إلا أن انهالت عليه شتماً وتأنيباً ، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ ، فألقته فيها إلقاء وانصرفت إلى عملها . ولبت صاحبنا فى مكانه لا يتحرك ولا يتكلم ، ولا يبكي ولا يفكر كأنه لا شئ . وإخوته وأخواته من حوله يضطربون ويلعبون ، لا يحفلون به ولا يلتفت إليهم .

وقربت المغرب ، وإذا هو يدعى ليجيب أباه ، تفرج خزيان متعتراً حتى انتهى إلى المنطرة . فلم يسأله أبوه عن شئ ، وإنما ابتدره سيدنا بهذا السؤال : ألم تقرأ على اليوم الأجزاء الستة من القرآن ؟ قال : بلى . قال : ألم تقرأ على أمس سورة سبأ ؟ قال : بلى . قال : فما بالك لم تستطع أن تقرأها اليوم ؟ فلم يجب . قال سيدنا : فاقرأ سورة سبأ ، فلم يفتح الله عليه منها بحرف . قال أبوه فاقرأ السجدة . فلم يحسن شيئاً . هنا اشتد غضب الشيخ ، ولكن على سيدنا لا على الصبي . قال : وإذا فهو

يذهب إلى الكتاب لا ليقراً ولا ليحفظ ، ولا لتُغنى به أو
تلتفت إليه ، وإنما هو لعب وعبث ! ولقد عاد اليوم حافياً ،
وزعم أنه نسي نعليه في الكتاب . . . وما أظن عنايتك بحفظه
للقرآن ، إلا كعنايتك بعشيه حافياً أو ناعلاً

قال سيدنا : أقسم بالله العظيم ثلاثاً ما أهمته يوماً . ولولا
أنى خرجت اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان ، لما
رجع حافياً . وإنه ليقراً على القرآن مرة في كل أسبوع : ستة
أجزاء في كل يوم ، أسمعها منه متى وصلت في الصباح . قال
الشيخ : لا أصدق من هذا شيئاً . قال سيدنا : امرأتى طالق ثلاثاً
ما كذبتك قط ، وما أنا بكاذب الآن ، وإنى لأسمع له القرآن
مرة في كل أسبوع . قال الشيخ : لا أصدق . قال سيدنا :
أفتظن أن ما تدفع إلى في كل شهر أحب إلى من امرأتى ؟ أم
تظن أنى في سبيل ما تدفع إلى أستحل الحرام ، وأعيش
مع امرأة طلقها ثلاثاً بين يديك ؟ قال الشيخ : ذلك شيء
لا شأن لى به ، ولكن هذا الصبي لن يذهب إلى الكتاب
منذ غد . ثم نهض فانصرف ، ونهض سيدنا فانصرف كثيراً

مخزوناً . وظل صاحبنا في مكانه لا يفكر في القرآن ولا فيما كان ، وإنما يفكر في مقدرة سيدنا على الكذب ، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها !!!

ولم يظهر الصبي في هذه الليلة على المائدة . ومكث ثلاثة أيام يتجنب مجلس أبيه ويتجنب المائدة . حتى إذا كان اليوم الرابع دخل أبوه عليه في المطبخ حيث كان يحب أن ينزوي إلى جانب الفرن ؛ فما زال يكلمه في دعاية وعطف ورفق ، حتى أنس الصبي إليه ، وانطلق وجهه بعد عبوسه ، وأخذ أبوه بيده فأجلسه مكانه من المائدة ، وعُني به أثناء الغداء عناية خاصة . حتى إذا فرغ الصبي من طعامه ونهض لينصرف ، قال أبوه هذه الجملة في مزاح قاس لم ينسه قط ، لأنه أضحك منه إخوته جميعاً ، ولأنهم حفظوها له ، وأخذوا يغيظونه بها من حين إلى حين — قال له : « أحفظت القرآن ؟ »

واتقطع الصبي عن الكتاب ، واتقطع سيدنا عن البيت ،
 والتمس الشيخ فقيهاً آخر يختلف إلى البيت في كل يوم ؛
 فيتلو فيه سورة من القرآن مكان سيدنا . ويقرأ الصبي
 ساعة أو ساعتين . وظل الصبي حراً لعبت ويلعب في البيت
 متى انصرف عنه الفقيه الجديد . حتى إذا كان العصر أقبل
 عليه أصحابه ورفاقه مُنصرَفهم من الكتاب ، فيقصّون عليه
 ما كان في الكتاب ، وهو يلهو بذلك ، ويعبت بهم وبكتابهم ،
 وبسيدنا وبالعريف . وكان قد خيل إليه أن الأمر قد انبت
 بينه وبين الكتاب ومن فيه ، فلن يعود إليه ، وإن يرى
 الفقيه ولا العريف . فأطلق لسانه في الرجلين إطلاقاً شديداً ،
 وأخذ يظهر من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يخفيه ، وأخذ
 يلعنهما أمام الصبيان ويصفهما بالكذب والسرقة والطمع .
 ويتحدث عنهما بأشياء منكّرة ، كان يجد في التحدث بها شفاء

لنفسه ، ولذة لهؤلاء الصبيان . وما له لا يطلق لسانه في
الرجلين ، وليس بينه وبين السفر إلى القاهرة إلا شهر واحد ؟
فسيعود أخوه الأزهرى من القاهرة بعد أيام ؛ حتى إذا قضى
إجازته استصحبه إلى الأزهر ، حيث يصبح مجاوراً ، وحيث
تنقطع عنه أخبار الفقيه والعريف .

الحق أنه كان سعيداً في هذه الأيام ، كان يشعر بشيء من
التفوق على رفاقه وأترابه ؛ فهو لا يذهب إلى الكتّاب كما
يذهبون ، وإنما يسعى إليه الفقيه سعيًا . وسيسافر إلى
القاهرة حيث الأزهر ، وحيث « سيدنا الحسين » وحيث
« السيدة زينب » وغيرها من الأولياء . وما كانت القاهرة
عنده شيئاً آخر ، إنما كانت مستقر الأزهر ، ومشاهد
الأولياء والصالحين .

ولكن هذه السعادة لم تدم إلا ريثما يعقبها شقاء شنيع ؛
ذلك أن سيدنا لم يطق صبراً على هذه القطيعة ، ولم يستطع
أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجواد عليه ، فأخذ يتوسل
بفلان وفلان إلى الشيخ ، وماهى إلا أن لانت قناة الشيخ ،

وأمر الصبي بالعودة إلى الكتاب متى أصبح . . عاد كارهاً مقدراً ما سيلقاه من سيدنا وهو يقرئه القرآن للمرة الثالثة . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان الصبيان ينقلون إلى الفقيه والعريف كل ما يسمعون من أصحابهم . ولله أوقات الغداء طوال هذا الأسبوع ! وما كان سيدنا ينال به الصبي من لوم ! وما كان العريف يعيد عليه من ألفاظه ، تلك التي كان يطلق بها لسانه مقدراً أنه لن يرى الرجلين !

في هذا الأسبوع تعلم الصبي الاحتياط في اللفظ ، وتعلم أن من الخطئ والحق الإطمئنان إلى وعيد الرجال ، وما يأخذون قله العقل أنفسهم به من عهد . ألم يكن الشيخ قد أقسم لا يعود الصبي إلى الكتاب أبداً وها هو ذا قد عاد ؟ وأي فرق بين الشيخ يُقسم ويحنت ، وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالاً يوحي الإحجام وهو يعلم أنه كاذب ؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه ، فيشتمون له الفقيه والعريف ، ويُغرونه بشتهما ، حتى إذا ظفروا منه بذلك ، تقربوا به إلى الرجلين ، وابتغوا به إليهما الوسيلة . وهذه أمه تضحك منه ، وتغري به سيدنا حين أقبل يتحدث إليها

بما تقل إليه الصبيان . وهؤلاء إخوته يشمتون به ، ويعيدون
عليه مقالة سيدنا من حين إلى حين ، يغيظونه ويثيرون سخطه .
ولكنه كان يحتمل هذا كله في صبر وجلد . وما له لا يصبر
ولا يتجلد ، وليس بينه وبين فراق هذه البيئـة كلها إلا شهر
أو بعض شهر !



ولكن الشهر مضى ، ورجع الأزهرى إلى القاهرة ، وظل صاحبنا حيث هو كما هو ، لم يسافر إلى الأزهر ، ولم يتخذ العمة ، ولم يدخل في جبة أو قفطان ..

كان لا يزال صغيراً ، ولم يكن من اليسير إرساله إلى القاهرة ، ولم يكن أخوه يحب أن يحتمله ، فأشار بأن يبقى حيث هو سنة أخرى ، فبقى ولم يحفل أحد برضاه أو غضبه . على أن حياته تغيرت بعض الشيء ؛ فقد أشار أخوه الأزهرى بأن يقضى هذه السنة في الاستعداد للأزهر ، ودفع إليه كتابين يحفظ أحدهما جملة ، ويستظهر من الآخر صحفاً مختلفة .

فأما الكتاب الذى لم يكن بدّ من حفظه كله فألفية ابن مالك . وأما الكتاب الآخر فمجموع المتون . وأوصى الأزهرى قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألفية ، حتى إذا فرغ منها وأتقنها

إتقاناً ، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة ، بعضها يسمى الجوهرة ، وبعضها يسمى الخريدة ، وبعضها يسمى السراجية ، وبعضها يسمى الرحية ، وبعضها يسمى لامية الأفعال . وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبي مواقع تيه وإعجاب ؛ لأنه لا يفهم لها معنى ، ولأنه يقدّر أنها تدل على العلم ، ولأنه يعلم أن أخاه الأزهرى قد حفظها وفهمها فأصبح عالماً وظفر بهذه المكانة الممتازة في نفس أبويه وإخوته وأهل القرية جميعاً . ألم يكونوا جميعاً يتحدثون بعودته قبل أن يعود بشهر ، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرحين مبتهجين متلطفين ؟ ! ألم يكن الشيخ يشرب كلامه شرباً ، ويعيده على الناس في إعجاب ونفار ؟ ! ألم يكن أهل القرية يتوسلون إليه أن يقرأ لهم درساً في التوحيد أو الفقه ؟ ! وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه ، ملحاً مستعطفاً مسرفاً في الوعد ، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأمانى ، ليلقى على الناس خطبة الجمعة ؟ ! ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبي ، ماذا لقي الأزهرى من إكرام وحفاوة ، ومن



تجلة وإكبار؟ كانوا قد اشتروا له قفطاناً جديداً، وجبة جديدة، وطربوشاً جديداً، و«مركوباً» جديداً. وكانوا يتحدثون بهذا اليوم وما سيكون فيه قبل أن يظلمهم بأيام. حتى إذا أقبل هذا اليوم وانتصف، أسرعت الأسرة إلى طعامها فلم تصب منه إلا قليلاً، ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة، واتخذ في هذا اليوم عمامة خضراء، وألقى على كتفيه شالاً من الكشمير، وأمه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جذلان مضطرباً. حتى إذا تم للفتى من زيّه وهيئته ما كان يريد، خرج فإذا فرس ينتظره بالباب، وإذا رجال يحملونه فيضعونه على السرج، وإذا قوم يكتنفونه من يمين ومن شمال، وآخرون يسمعون بين يديه، وآخرون يمشون من خلفه، وإذا البنادق تطلق في الفضاء، وإذا النساء يزغردن من كل ناحية، وإذا الجو يتأرجح بعرف البخور، وإذا الأصوات ترتفع متغنية بمدح النبي، وإذا هذا الحفل كله يتحرك في بطاء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور. كل ذلك لأن هذا الفتى الأزهرى قد اتخذ في هذا اليوم خليفة، فهو يطاف به في المدينة

وما حولها من القرى في هذا المهرجان الباهر . وما باله اتُخذ خليفة دون غيره من الشبان ؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألفية والجوهرة والخريدة ! فلم لا يتهيج الصبي حين يرى أن سيقراً من العلم ما قرأ أخوه ، وأن سيمتاز من رفاقه وأترابه بحفظ الألفية والجوهرة والخريدة !

وكم كان فرحاً مختلاً حين غدا إلى الكتاب يوم السبت ، وفي يده نسخة من « الألفية » ! لقد رفعت هذه النسخة درجات ، وإن كانت هذه النسخة ضئيلة قدرة سيئة الجلد ، ولكنها على ضآلتها وقذارتها ، كانت تعدل عنده خمسين مصحفاً من هذه المصاحف التي كان يحملها أترابه .

المصحف ! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئاً . وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد ، ولا ينتخبون خلفاء يوم المولد النبوي ...

ولكن الألفية ! .. وما أدراك ما الألفية ؟ وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفاً . وحسبك أن العريف لا يحسن

أن يقرأ الآيات الأولى منها . والألفية شعر ، وليس في
المصحف شعر .

الحق أنه ابتهج بهذا البيت :

قال محمد هو ابن مالك * أحمد ربى الله خير مالك
ابتهاجاً لم يشعر بشيء مثله أمام أى سورة من سور القرآن .



وكيف لا يتتهج وقد أحسن منذ اليوم الأول أنه ارتفع
درجات : فأصبح « سيدنا » لا يستطيع أن يُشرف على حفظه
للألفية ولا أن يقرئه إياها ، بل ضاق الكتاب كله بالألفية ،
وكلّف الصبي أن يذهب في كل يوم إلى المحكمة الشرعية :
ليقرأ على القاضي ما يريد أن يحفظه من الألفية . القاضي عالم
من علماء الأزهر ، أكبر من أخيه الأزهرى ، وإن كان أبوه
لا يؤمن بذلك ، ولا يرى أن القاضي يكافئ ابنه . هو على كل
حال عالم من علماء الأزهر ، وهو قاضى الشرع (بقاف ضخمة
وراء مفخمة) وهو فى المحكمة لا فى الكتاب . وهو يجلس
على دكة مرتفعة ، وقد وضعت عليها الطنافس والوسائد ،
لا تقاس إليها دكة سيدنا ، وليس حولها نعال مرّقة ، وعلى بابه
رجلان يقومان مقام الحاجب ، ويسميها الناس هذا الاسم
البديع ، الذى لم يكن يخلو من هيبة : « الرّسل » .

نعم ! كان يجب على الصبي أن يذهب إلى المحكمة في كل صباح ، فيقرأ على القاضي باباً من أبواب الألفية . وكم كان القاضي يحسن القراءة ! وكم كان يعلاً فيه بالقاف والراء ! وكم كان صوته يتهدج بقول ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم * واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم * وكلمة بها كلام قد يؤم
ولقد استطاع القاضي أن يؤثر في نفس الصبي ، ويعلاه
تواضعاً حين قرأ هذه الأبيات :

وتقتضى رضا بغير سُخْط * فائقة ألفية ابن معطى
وهو بسبق حاز تفضيلاً * مستوجب ثنائى الجيلا
والله يقضى بهيات وافر * لى وله فى درجات الآخرة
قرأ القاضي هذه الأبيات بصوت يحطمه البكاء خطماً ،
ثم قال للصبي : مَنْ تواضع لله رفعه ، أتفهم هذه الأبيات ؟ قال
الصبي : لا . قال القاضي : إن المؤلف رحمه الله تعالى ، عندما
بدأ فى نظم ألفيته اغترّ وأخذه الكبر فقال : « فائقة ألفية
ابن معطى » . فلما كان الليل رأى فيما يرى النائم ، أن ابن معطى

قد أقبل يعاتبه عتاباً شديداً ، فلما أفاق من نومه أصلح من هذا الغرور وقال : « وهو بسبق حائز تفضيلاً » .

وكم كان الشيخ مبتهجاً فرحاً حين عاد إليه الصبي عصر ذلك اليوم ؛ فقص عليه ما سمع من القاضى ، وقرأ عليه الأبيات الأولى من الألفية ! فكان يقطع هذه الأبيات بهذه الكلمة التى يعبر بها الناس عن الاستحسان : « الله ! الله ! » .

على أن لكل شىء حداً ؛ فقد مضى صاحبنا فى حفظ الألفية فرحاً مبتهجاً حتى انتهى إلى باب المبتدأ ، ثم فترت همته . وكان أبوه يسأله عصر كل يوم : هل ذهبت إلى المحكمة ؟ فيجيب : نعم . فكم حفظت ؟ فيقرأ له ما حفظ .

ولكن الأمر ثقل عليه منذ باب المبتدأ ، فأخذ يحفظ ويذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً ؛ حتى وصل إلى باب المفعول المطلق ، ثم لم يستطع أن يتقدم خطوة قصيرة ولا طويلة . ولبت يذهب إلى المحكمة فى كل يوم ، ويقرأ على القاضى فصلاً من فصول الألفية . حتى إذا عاد إلى الكتاب

ألقى الألفية في ناحية ، وانصرف إلى عبثه ولعبه ، وإلى قراءة القصص والأحاديث .

فإذا كان العصر وسأله أبوه : هل ذهبت إلى المحكمة ؟

أجاب : نعم .

— وكم حفظت من بيت ؟

— أجب عشرين .

— من أى باب ؟

— من باب الإضافة ، أو من باب النعت ، أو من باب

جمع التكسير .

فإذا قال له : اقرأ على ما حفظت ، قرأ عليه عشرين بيتاً

من المائتين الأوليين ، مرة من المعرب والمبنى ، وأخرى من

النكرة والمعرفة ، وثالثة من المبتدأ والخبر ، والشيخ لا يفهم شيئاً ،

ولا يلاحظ أن ابنه يخدعه ! وإنما يكتب أن يسمع كلاماً منظوماً ،

وهو مطمئن إلى القاضي . ومن غريب الأمر أن الشيخ لم يفكر

مرة واحدة في أن يفتح الألفية ، ويقابل على الصبي وهو

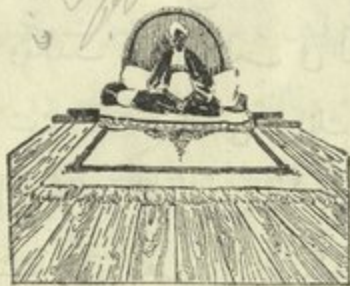
يقرأ . ولو قد فعل يوماً من الأيام ، لكانت للصبي قصة

كقصته مع سورة الشعراء ، أو سبأ ، أو فاطر . . .
على أن الصبي تعرّض لهذا الخطر مرة . ولولا أن أمه
شفعت فيه لكان له مع أبيه موقف مشهود .

كان له أخ يختلف إلى المدارس المدنية ، فعاد من القاهرة
ليقضى فصل الصيف . واتفق أنه حضر هذا الامتحان اليومي
أياماً متصلة ؛ فسمع الشيخ يسأل الصبي : أى باب قرأت ؟
فيجيب الصبي : باب العطف مثلاً . فإذا طلب إليه أن يعيد
ما قرأ ، أعاد عليه باب العلم أو باب الصلة والموصول .

سكت الشاب في أول يوم وفي اليوم الذى يليه . فلما
كثر ذلك انتظر حتى انصرف الشيخ ، وقال للصبي أمام أمه :
إنك تخدع أباك وتكذب عليه ، وتلعب في الكتاب ، ولا
تحفظ من الألفية شيئاً . . . قال الصبي : إنك كاذب ! وما
أنت وذاك ؟ ! وإنما الألفية للزهرين لا لأبناء المدارس !
وسل القاضى ينبئك بأنى أذهب إلى المحكمة في كل يوم .
قال الشاب : أى باب حفظت اليوم ؟ قال الصبي : باب كذا .
قال الشاب : ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك ، وإنما قرأت

عليه باب كذا ، وهات نسخة الألفية أمتحنك فيها . بهت
الصبي وظهر عليه الوجوم . وهمّ الشاب أن يقص القصة على
الشيخ ، ولكن أمه توسلت إليه ؛ وكان الشاب رفيقاً بأمه
رءوفاً بأخيه ، فسكت . وظل الشيخ على جهله حتى عاد
الأزهري . فلما عاد امتحن الصبي ، وما هي إلا أن عرف
جلية الأمر ، فلم يغضب ولم ينذر ولم يخبر الشيخ ، وإنما أمر
الصبي أن ينقطع عن الكتاب والحكمة ، وأحفظه الألفية
كلها في عشرة أيام



للعلم في القرى ومدن الأقاليم جلال ليس له مثله في
 العاصمة ولا في بيئاتها العلمية المختلفة . وليس في هذا شيء من
 العجب ولا من الغرابة ، وإنما هو قانون العرض والطلب ،
 يجري على العلم كما يجري على غيره مما يباع ويشترى . فبينما
 يروح العلماء يغدون في القاهرة لا يحفل بهم أحد ، أو
 لا يكاد يحفل بهم أحد ، وبينما يقول العلماء فيكثرون في
 القول ويتصرفون في فنونه ، دون أن يلتفت إليهم أحد غير
 تلاميذهم في القاهرة ، ترى علماء الريف ، وأشياخ القرى
 ومدن الأقاليم ، يغدون ويروحون في جلال ومهابة ، ويقولون
 فيستمع لهم الناس مع شيء من الإكبار مؤثر جذاب . وكان
 صاحبنا متأثراً بنفسية الريف ، يُكبر العلماء كما يكبرهم
 الريفيون ، ويكاد يؤمن بأنهم فُطروا من طينة تقيّة ممتازة ،
 غير الطينة التي فُطر منها الناس جميعاً .

وكان يسمع لهم وهم يتكلمون ، فيأخذ شئاً من الإعجاب والدّهش ، حاول أن يجد مثله في القاهرة أمام كبار العلماء وجملة الشيوخ فلم يوفق .

كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة ؛ قد تقسموا فيما بينهم إعجاب الناس ومودتهم . فأما أحدهم فكان كاتباً في المحكمة الشرعية ، قصيراً ضخماً ، غليظ الصوت جهّوريّاً ، يمتلئ شدقه بالألفاظ حين يتكلم ، فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها ، غليظة كصاحبها ؛ وتصدّمك معانيها كما تصدّمك مقاطعها . وكان هذا الشيخ من الذين لم يَفْلَحُوا في الأزهر ؛ قضى فيه ما شاء الله أن يقضى من السنين ، فلم يوفق للعالمية ولا للقضاء ، فقفّع بمنصب الكاتب في المحكمة ، على حين كان أخوه قاضياً ممتازاً ، قد جعل إليه قضاء أحد الأقاليم . ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس في مجلس إلا غر بأخيه ، وذم القاضى الذى هو معه . كان حنفي المذهب ، وكان أتباع أبي حنيفة في المدينة قليلين ، أو لم يكن لأبي حنيفة في المدينة أتباع ؛ فكان ذلك يعيظه ويحنقه على خصومه العلماء الآخرين ،

أي أتباع
أبي حنيفة



تصویر از صحنه‌ای از نمایشنامه «...» در سال ۱۳۰۴ خورشیدی
در تئاتر ملی ایران، تهران

الذين كانوا يتبعون الشافعي أو مالكا ، ويمجدون في أهل
المدينة صدّي لعلمهم ، وطلاباً للفتوى عندهم . فكان لا يدع
فرصة إلا تجدد فيها فقه أبي حنيفة ، وغض فيها من فقه
مالك والشافعي . وأهل الريف مكرّة أذكاء ؛ فلم يكن يخفى
عليهم أن الشيخ إنما يقول ما يقول ، ويأتي ما يأتي من الأمر ،
متأثراً بالحق والموجدة ، فكانوا يعطفون عليه ، ويضحكون
منه . وكانت المنافسة شديدة عنيفة بين هذا الشيخ وبين الفتى
الأزهري . كان يُنتخب خليفة في كل سنة ، فعاظه أن ينتخب
هذا الفتى خليفة دونه . ولما تحدّث الناس أن الفتى سيلقي خطبة
الجمعة سمع الشيخ هذا الحديث ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان
يوم الجمعة وامتلاً المسجد بالناس ، وأقبل الفتى يريد أن يصعد
المنبر ، نهض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام ، وقال في صوت
سمعه الناس : إن هذا الشاب حديث السن ، وما ينبغي له أن
يصعد المنبر ولا أن يخطب ولا أن يصلي بالناس وفيهم
الشيوخ وأصحاب الأسنان . ولئن خليت بينه وبين المنبر
والصلاة لانصرفن . ثم التفت إلى الناس وقال : ومن كان

ضراع

الفض

منكم حريصاً على ألا تبطل صلاته فليتبعض . سمع الناس هذا
فاضطربوا ، وكادت تقع بينهم الفتنة لولا أن نهض الإمام
نخطبهم وصلى بهم . وحيل بين الفتى وبين المنبر هذا العام . ومع
ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه في حفظ الخطبة واستعد لهذا
الموقف أياماً متصلة ، وتلا الخطبة على أبيه غير مرة ، وكان أبوه
ينتظر هذه الساعة أشد ما يكون إليها شوقاً ، وأعظم ما يكون
بها ابتهاجاً . وكانت أمه مشفقة تخاف عليه العين . فاكاد
يخرج إلى المسجد ذلك اليوم ، حتى نهضت إلى حجر وضعت في
إناء وأخذت تلقي فيه ضرباً من البخور ، وتطوف به البيت
حجرة حجرة ، تقف في كل حجرة لحظات وتهتمهم بكلمات
وظلت كذلك حتى عاد ابنها ، فإذا هي تلقاه من وراء الباب
مبخرة مهممة ، وإذا الشيخ مغضب يلعن هذا الرجل الذي
أكل الحسد قلبه ، خال بين ابنه وبين المنبر والصلاة .

وكان في المدينة عالم آخر شافعي ، كان إمام المسجد ،
وصاحب الخطبة والصلاة ، وكان معروفاً بالتقى والورع ، يذهب
الناس في إكباره وإجلاله إلى حد يشبه التقديس ، كانوا

يتبركون به ، ويلتمسون عنده شفاء مرضهم وقضاء حاجاتهم .
وكأنه كان يرى في نفسه شيئاً من الولاية . وظل أهل المدينة
بعد موته سنين يذكرونه بالخير ، ويتحدثون مقتنعين بأنه عند
ما أنزل في قبره قال بصوت سمعه المشيعون جميعاً : اللهم اجعله
منزلاً مباركاً . وكانوا يتحدثون بما رأوا فيما يرى النائم من حظ
هذا الرجل عند الله ، وما أعد له في الجنة من نعيم .

وشيخ ثالث كان في المدينة ، وكان مالكي المذهب ، ولم
يكن ينقطع للعلم ولا يتخذ حرفة ، وإنما كان يعمل في الأرض
ويتجر ، ويختلف إلى المسجد فيؤدي الحس ، ويجلس إلى
الناس من حين إلى حين ، فيقرأ لهم الحديث ، ويفقههم في
الدين متواضعاً غير تباه ولا نخور ، ولم يكن يحفل به إلا
الأقلون عدداً .

هؤلاء هم العلماء . ولكن علماء آخرين كانوا منبئين في
هذه المدينة وقراها وريفها . ولم يكونوا أقل من هؤلاء العلماء
الرسميين تأثيراً في دهماء الناس وتسلطاً على عقولهم : منهم هذا
الحاج ... الخياط الذي كان دكانه يكاد يقابل الكتاب ،

جماعه

والذي كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح ، والذي كان متصلاً بشيخ من كبار أهل الطرق ، والذي كان يزدري العلماء جميعاً ؛ لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ ، والذي كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللدني ، الذي ^{أكبره طريقه} _{في الدين} عنده الله يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب ، بل دون أن تقرأ أو تكتب .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذي كان في أول أمره حماراً ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم ، ثم أصبح تاجراً ، واقتصرت حُمُرُه على نقل تجارتِه ، والذي كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى ، وأثرى على حساب الضعفاء ، والذي كان يكثر من ترديد هذه الآية وتفسيرها : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » ، والذي كان يكره الصلاة في المسجد الجامع ، لأنه كان يكره الإمام ومن إليه من العلماء ، ويؤثر الصلاة في مسجد صغير لا قيمة له ولا مكانة .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا

ج ١ (٦)

يحسن قراءة الفاتحة، ولكنه كان شاذلياً من أصحاب الطريق،
كان يجمع الناس إلى الذكر، ويفتيهم في أمور دينهم ودنياهم.
ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرءون القرآن ويقرءونه
للناس. ولذين كانوا يعيزون أنفسهم من العلماء ويتسمون
« حملة كتاب الله »، والذين كانوا يتصلون بدهماء الناس والنساء
منهم خاصة كانت جهرتهم من المكفوفين، فكانوا يدخلون
البيوت يتلون فيها القرآن. وكان النساء يتحدثن إليهم،
ويستفتينهم في أمور الصوم والصلاة وما إلى ذلك من
أموالهن. وكان لهؤلاء الفقهاء علم مخالف كل المخالفة لعلم
العلماء، الذين يأخذون علمهم من الكتب، والذين بينهم
وبين الأزهر سبب قوى أو ضعيف. وكان علمهم مخالفاً أيضاً
لعلم أصحاب الطرق وأهل العلم اللدني. كانوا يأخذون علمهم
من القرآن مباشرة، يفهمونه كما يستطيعون، لا كما هو ولا
كما ينبغي أن يفهم. يفهمونه كما كان يفهمه سيدنا، وكان من
أذكي الفقهاء، وأشد علماء، وأقدرهم على التأويل. سأل الصبي
ذات يوم: ما معنى قول الله تعالى: « وخلقناكم أطواراً »؟

فأجاب هادئاً مطمئناً : خلقناكم كالثيران لا تعقلون شيئاً .
أو يفهمونه كما يفهمه جدّ هذا الصبي نفسه ، وكان من أحفظ
الناس للقرآن وأبرعهم في فهمه وتفسيره وتأويله . سأله
حفيدة ذات يوم عن قول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد
الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة
انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » ، فقال : « على حرف
دكة ، على حرف مصطبة . . . فإن أصابه خير فهو مطمئن في
مكانه ، وإن أصابه شر انكفأ على وجهه » .

وكان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعاً ، ويأخذ عنهم
جميعاً ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف
مضطرب متناقض ، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في
تكوين عقله الذي لم يخلُ من اضطراب واختلاف وتناقض .



وشيوخ الطريق ، وما شيوخ الطريق !! كانوا كثيرين
منبشرين في أقطار الأرض ، لا تكاد تخلو منهم المدينة أسبوعاً .
وكانت مذاهبهم مختلفة ، وكانوا قد تقسموا الناس فيما بينهم
فجعلوهم شيعاً ، وفرّقوا أهواءهم تفريقاً عظيماً . وكانت المنافسة
حادة في الإقليم بين أسرتين من أصحاب الطريق ، لإحداها
أعلاه وللأخرى أسفله .

وإذ كان أهل الإقليم ينتقلون ولا يابون على أنفسهم الهجرة
من قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى مدينة داخل الإقليم ، فقد
كان يتفق أن ينزل أتباع إحدى الأسرتين حيث تتسلط الأسرة
الأخرى . وكان زعماء الأسرتين ينتقلون في الإقليم يزورون
أتباعهم وأشياعهم . والله ما كان يحدث من الخصومات يوم يهبط
صاحب العالية إلى السافلة ، أو يصعد صاحب السافلة إلى العالية !
وكان أبو الصبي من أتباع صاحب العالية ، أخذ عنه العهد ، وأخذ

عنه أبوه من قبل . وكانت أم الصبي من أتباع صاحب العالية
أيضاً ، بل كان أبوها من أنصاره وحوارييه المقربين إليه . نعيم
ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنه الحاج . . . وكان
أنشط من أبيه ، وأقدر على الكيد واللؤم ، وأنهض للخصومة .
كان أقرب من أبيه إلى الدنيا ، وأبعد من أبيه عن الدين .

وكان أبو الصبي قد هبط إلى السافلة واستقر فيها ،
فكانت لصاحب العالية عادة أن يزوره مرة في كل سنة .
وكان إذا أقبل لم يُقبل وحده ولم يقبل في نفر قليل ، وإنما
أقبل في جيش ضخم ، إن لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها إلا
قليلاً . ولم يكن يتخذ قُطْرُ السكة الحديدية ولا سفن النيل ،
وإنما كان يتخذ الجياد والبغال والحُمير ، يسير ومن حوله
أصحابه ، فيمرون بالقرى والداكر ، ينزلون ويرحلون في
أبهة وضخامة ، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم ، مُتَحَدِّين
حيث لخصومهم شيء من القوة . وكانوا إذا زاروا أسرة الصبي ،
أقبلوا حتى ينزلوا ، فإذا الشارع ممتلئ بهم وبخيولهم وبغالهم
ومُحَرَّمهم ، قد أخذوه من القناة إلى أقصاء الجنوبي ، وإذا شاء

على قصر القوافل

تذبح، وإذا السَّمُطُ ممدودةٌ في الشارع، وإذا هم إلى طعامهم ^{في بيته عليه}

في شَرِّهِ لا يعدله شره، والشيخ جالس في المنظره ومن حوله ^{الجل له}
أصفاؤه وأولياؤه، وبين يديه صاحب البيت وأخصاؤه يأتمرون
بأمره، فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه فنام حيث هو، ثم
نهض فتوضأ. فانظر إلى الناس يستبقون ويختصمون أيهم
يصب عليه الماء! فإذا فرغ، فانظر اليهم يستبقون ويختصمون
أيهم يصيب من وضوء الشيخ جرعة! والشيخ عنهم في شغل،
يصلّي فيطيل الصلاة، ويدعو فيطيل الدعاء. حتى إذا فرغ
من هذا كله جلس للناس وهم يتقاطرون عليه، منهم من يقبل
يده وينصرف خاشعاً، ومنهم من يتحدث إليه لحظة أو لحظات،
ومنهم من يسأله حاجة، والشيخ يحيب أولئك وهؤلاء بالفاظ
عربية غامضة، يذهبون في فهمها وتأويلها المذاهب.

أَدْخَلَ عَلَيْهِ الصَّبِي فَمَسَحَ رَأْسَهُ وَتَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً». من ذلك اليوم
اقتنع أبو الصبي بأن سيكون لابنه شأن. فإذا صُلِّيَتِ الْمَغْرِبُ
مُدَّتِ الْمَوَائِدُ وَكُلَّ النَّاسُ، ثُمَّ تَصَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ يَنْصَبُ الْمَجْلِسَ.

وَنَصَّبَ المجلس عبارة عن اجتماع الناس إلى حلقة الذكر ،
 يذكرون الله قاعدين ساكنين ، ثم تتحرك رءوسهم وترتفع
 أصواتهم قليلاً ، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً ، ثم
 تنبث في أجسامهم رعدةٌ فإذا هم جميعاً وقوف ، قد دفعوا في الهواء
 كأنما حركهم لولب ، وقد انبث في الحلقة شيوخ ينشدون شعر زهير
 ابن الفارض وما يشبهه من الشعر . وكان لهذا الشيخ خاصة
 كَلَفٌ بقصيدة معروفة ، فيها ذكر الإسراء والمعراج ، أولها : *السيريل*
 من مكة والبيت الأنجد * للقدس سرى ليلاً أحمد
 كان الشيوخ يرتلون بها ترتيلاً ، وكان الذاكرون يحركون
 أجسامهم على هذا الترتيل ، ينحنون ويستقيمون كأنما يرقصهم
 هؤلاء الشيوخ ترقيصاً .

ومهما ينس الصبي فلن ينسى ليلة غلط فيها أحد المنشدين
 فوضع لفظاً مكان لفظ من القصيدة ، وإذا الشيخ قد ثار وفار ،
 وأرغى وأزبد ، وصاح بملء صوته : يا بني الكلاب ! لعن الله
 آباءكم وآباء آبائكم وآباء آبائكم إلى آدم ! أتريدون أن
 تُخربوا بيت الرجل !

ومهما ينس الصبي فلن ينسى تأثير هذه الغضبة في نفوس
الذاكرين وفي نفوس الناس من حولهم ، وكأن الناس قد
اقتنعوا بأن الغلط في هذه القصيدة مصدر شؤم لا يشبهه
شؤم . وأظهر أبو الصبي تأثراً وفزعاً ، ثم اطمئناناً وهدوءاً .
فلما انصرف الشيخ من الغد وتذاكرت الأسرة ما كان من
أمره ، وما كان من قصته مع الذاكرين والمنشدين ، ضحك
صاحب البيت ضحكة لم يشك الصبي بعدها في أن إيمان أبيه
بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والازدراء . . . نعم من
الشك والازدراء ! فقد كان طمع الشيخ وحرصه أظهر من أن
ينخدع بهما من له حظ من أناة وتفكير .

وكان من أشد الناس مقتاً للشيخ وسخطاً عليه أم الصبي .
كانت تكره زيارته ، وتستثقل ظله ، وتودى ما تودى ، وتعد
ما تعد وهي كارهة ساخطة ، لا تكاد تمسك لسانها إلا في مشقة
وعناء . ذلك لأن زيارة الشيخ كانت ثقيلة على هذه الأسرة التي
كانت تعيش في سعة ، ولكنها كانت فقيرة على كل حال .
كانت زيارة الشيخ تستهلك كثيراً من القمح والسمن والعسل

وما إلى ذلك ، وكانت تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بد منه من الضأن والمعز . وكان الشيخ لا يُلِمُّ بهذه الأسرة المحرمان إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه : يأخذ في هذه المرة بساطاً ، وفي هذه شالاً من الكشمير ، وعلى هذا النحو . كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغَّب فيه الأسرة رغبة شديدة ؛ لأنه يَمَكِّنُها من الفخر ورفع الرأس ومناوأة الأشباه والنظائر ، وتكرهه كرهاً شديداً لأنه يكلفها ما يكلفها من المال والمشقة . كانت شراً لا بد منه ، جرت به العادة وصادف هوى في الناس . وكان اتصال الأسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قوياً متيناً ، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص ، وأحاديث الكرامات والمعجزات . وكانت أم الصبي وأبوه يحدان لذة في أن يتحدثا إلى أبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث . ولم تكن أم الصبي تدع فرصة إلا قصت فيها هذه القصة : « حج أبي ومعه جدتي مع الشيخ خالد مرة ، وكان الشيخ قد حج ثلاث مرات تبعه فيها أبي ، واستصحب أمه هذه المرة . فلما فرغوا من الحج وانصرفوا إلى المدينة ، وقعت

الشيخة في بعض الطريق من الرحل ، فأنحطم ظهرها انحطاماً ،
وعجزت عن المشي والحركة ، وأخذ ابنها يحملها وينقلها من
مكان إلى مكان ، ويحد في ذلك من المشقة والعناء ما شكاه إلى
الشيخ ذات يوم . فقال له الشيخ : ألسنت تزعم أنها شريفة
من نسل الحسن بن عليّ ؟ قال : بلى . قال : فهي ذاهبة
إلى جدّها ، فإذا انتهت بها إلى المسجد النبوي فضعها في
ناحية منه ، واخلّ بينها وبين جدّها يصنع بها ما يشاء .
وكذلك فعل الرجل : وضع أمه في ناحية من نواحي المسجد ،
وقال لها في لغة الفلاح الجافية يملؤها مع جفوتها الحب
والإشفاق : أنت وجدّك ، فليس لي بكما شأن ! ثم تركها
وتبع شيخه يريد أن يطوف بقبر النبي . قال الرجل : فوالله
ما خطوط خطوات حتى سمعتُ أمي تناديني ، فالتفتُ فإذا هي
قائمة تسمى ، وأييت أن أعود إليها ، فإذا هي تعدو من ورأى
عدواً ، وإذا هي تسبقني إلى الشيخ وتطوف مع الطائفين » .
وكان أبو الصبي لا يدع فرصة إلا ذكر فيها عن الشيخ هذه
القصة : ذكر أمامه أن الغزاليّ قال في بعض كتبه : إن النبي

لا يمكن أن يرى فيما يرى النائم . فغضب الشيخ وقال : والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي ! لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكباً بغلته . وذكر له ذلك مرة أخرى فقال : والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي ! لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكباً ناقته . وكان أبو الصبي يستنبط من ذلك أن الغزالي قد أخطأ ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يروا النبي فيما يرى النائم ، وأن الأولياء والصالحين يستطيعون أن يروه وهم أيقاظ . وكان أبو الصبي يثبت هذا بحديث يرويه كلما ذكر هذه القصة وهو : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي » . وعلى هذا النحو حفظ الصبي ألواناً من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفية . وكان إذا أراد أن يتحدث بشيء من ذلك إلى أترابه ورفاقه في الكتاب قصّوا عليه أمثاله ، يضيفونه إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيماناً شديداً .

كانت لأهل الريف شيوخهم وشبانهم وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصة فيها سذاجة وتصوّف وغفلة ، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق .

على أن صبيناً لم يلبث أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم
لوناً آخر جديداً ، وهو علم السحر والطلاسم ؛ فقد كان باعة
المكتب يتنقلون في القرى والمدن بخليط من الأسفار ، لعله
أصدق مثل لعقيدة الريف في ذلك العهد . كانوا يحملون في
حقائبهم مناقب الصالحين ، وأخبار الفتوح والغزوات ،
وقصة القط والفار ، وحوار السلك والوابور ، وشمس المعارف
الكبرى في السحر ، وكتاباً آخر لست أدري كيف
كان يسمى ، ولكنه كان يعرف بكتاب « الدَيْرَ بِي » ،
ثم أوراداً مختلفة ، ثم قصص المولد النبوي ، ثم مجموعات
من الشعر الصوفي ، ثم كتباً في الوعظ والإرشاد ، وأخرى في
المحاضرات وعجائب الأخبار ، ثم قصص الأبطال من الهلاليين
والزناتيين ، وعنتر ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذي يزن ،
ثم القرآن الكريم مع هذا كله . وكان الناس يشترون هذه

الكتب كلها ويلتهمون ما فيها التهاماً ، وكانت عقليتهم
تكون من خلاصته كما تكون أجسامهم من خلاصة
ما كانوا يأكلون ويشربون .

وقد قرئ لصاحبنا من هذا كله ، فحفظ منه الشيء
الكثير . ولكنه عني بشيئين عناية خاصة : عني بالسحر ،
وعني بالتصوف . ولم يكن في الجمع بين هذين اللونين من
العلم شيء من الغرابة ولا من العسر ؛ فإن التناقض الذي يظهر ^{صوفي}
بينهما ليس إلّا صورياً في حقيقة الأمر . أليس الصوفي يزعم
لنفسه وللناس أنه يخرق حجب الغيب ، وينبئ بما كان
وما سيكون ، كما أنه يتعدى حدود القوانين الطبيعية ويأتي
^{أنواع} بضرور من الخوارق والكرامات ؟ والساحر ماذا يصنع ؟
أليس يزعم لنفسه القدرة على الإخبار بالغيب ، وتجاوز حدود
القوانين الطبيعية أيضاً ، والاتصال بعالم الأرواح ؟ . . .
بلى ! كل ما يوجد من الفرق بين الساحر والصوفي هو أن
هذا يتصل بالملائكة ، وذلك يتصل بالشياطين . ولكن يجب
أن نقرأ ابن خلدون وأمثاله لنصل إلى تحقيق مثل هذا

الفرق ، وترتب عليه نتائج الطبيعة من تحريم السحر والترغيب عنه ، وتحبيب التصوف والترغيب فيه .

وما كان أبعد صبيئنا وأترابه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون ! إنما كانت تقع في أيديهم كتب السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، فيقرأون ويتأثرون ، ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة . وإذا هم يسلكون مناهج الصوفية ، ويأتون ما يأتيه السحرة من ضروب الفن . وكثيراً ما يختلط في عقولهم السحر والتصوف ، فيصبح كلاهما شيئاً واحداً ، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله .

وكذلك كان الأمر في نفس صاحبنا ؛ فقد كان يتصوف ويتكلف السحر ، وهو واثق بأنه سيرضى الله ، ويظفر من الحياة بأحب لذاتها إليه .

وكان من القصص التي تكثر في أيدي الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب ، قصة اقتطعت من « ألف ليلة وليلة » وتعرف بقصة « حسن البصرى » . في هذه القصة أخبار ذلك المجوسى الذى كان يحوّل النحاس ذهباً ، وأخبار ذلك القصر



شعيرة باليهامه شبح بالكاله مع الفيا مع اوله

الذى كان يقوم من وراء الجبل على عمد شاهقة في الهواء ،
وتقيم فيه بنات سبع من بنات الجن ، والذى أوى إليه حسن
البصرى ، ثم أخبار حسن هذا وما كان من رحلته الطويلة
الشاقة إلى دور الجن . وبين هذه الأخبار خبر ملاً الصبي
إعجاباً ، وهو أن قضيباً أهدى إلى حسن هذا في بعض رحلته ،
وكان من خواص هذا القضيب أن تضرب به الأرض فتنشق
ويخرج منها تسعة نفر يأترون بأمر صاحب القضيب ، وهم
بالطبع من الجن أقوىاء خفاف يطرون ويمدون ، ويحملون
الأثقال ، ويقتلعون الجبال ، ويأتون من عجيب الأمر
ما لا حد له .

فبين الصبي بهذه العصا ، ورغب في أن يظفر بها رغبة
شديدة قوية أرقت ليله ونغصت يومه . فأخذ يقرأ كتب
السحر والتصوف ، يلتمس عند السحرة والمتصوفين وسيلة
تمكّنه من هذه العصا .

وكان له قريب صبي مثله يرافقه إلى الكتاب ، فكان أشد
منه كلفاً بهذه العصا . وما هي إلا أن جدّ الصبيّان في البحث

حتى انتهى إلى وسيلة يسيرة تمكّنها مما يريدان . وجداها في كتاب الديربي ، وهي أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تطهر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطيب ، ثم يأخذ في ترديد هذا الاسم من أسماء الله «يا لطيف يا لطيف» ملقياً في النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين ، فيمضي في ترديد هذه الكلمة وتحريق هذا الطيب ، حتى تدور به الأرض ، وينشق أمامه الحائط ، ويمثل أمامه خادم من الجن موكل بهذا الاسم من أسماء الله ، فيطلب إليه ما يريد ، والحاجة مقضية من غير شك .

ظفر الصبيان بهذه الوسيلة ، فاعتزما أن يستخدموها . وما هي إلا أن اشتريا ضروباً من الطيب ، وخلاصينا إلى نفسه في المنظرة ، أغلق بابها من دونه ، ووضع بين يديه قطعاً من النار وأخذ يلقى فيها الطيب ، ويردد : «يا لطيف ! يا لطيف !» .

وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشق له الحائط ويمثل الخادم بين يديه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

وهنا تحول صبيّنا الساحر المتصوف إلى نصّاب .

خرج من المنظرة مضطرباً يمسك رأسه بيديه ولا يكاد

لسانه ينطلق بحرف واحد . فتلقاه صاحبه الصبي يسأله : هل
 لقي الخادم ؟ وهل طلب إليه العصا ؟ وصاحبنا لا يجيب إلا
 مضطرباً مرتجفاً ، تصطك أسنانه اصطكاكاً ، حتى روع
 رفيقه الصبي . وبعد لأي أخذ صاحبنا يهدأ ويحيب في ألفاظ
 منقطعة وبصوت متهجج : « لقد دارت بي الأرض حتى
 كدت أسقط ، وانشق الحائط وسمعت صوتاً ملاً الحجرة
 من جميع نواحيها ، ثم أغمى على ثم أفقت فخرجت مسرعاً !! »
 سمع الصبي هذا فامتلاً فرحاً وإعجاباً بصاحبه ، وقال له :
 هوّن عليك ! فقد أصابك الرعب وملك الخوف عليك أمرك ،
 فلنبحث في الكتاب عن شيء يؤمنك ويشجعك على أن تثبت
 للخادم وتطلب منه ما تشاء . واستأنفا البحث في الكتاب .
 وانتهى بهما البحث إلى أن صاحب الخلوة يجب أن يصلي
 ركعتين قبل أن يجلس إلى النار ويأخذ في ترديد هذا الاسم .
 وكذلك فعل الصبي من غده ، وأخذ يلقي الطيب في النار
 ويردد دعاء « اللطيف » ينتظر أن تدور به الأرض ، وينشق له
 الحائط ، ويمثل الخادم بين يديه ، ولكن شيئاً من ذلك لم

يكن . وخرج الصبي إلى صاحبه هادئاً مطمئناً ، فأخبره أن
قد دارت الأرض وانشق الحائط ومثل الخادم بين يديه وسمع
منه حاجته ، ولكنه لم يشأ أن يجيبه إليها حتى يمرن على هذه ^{بسم}
الخلوة ، ويكثر من الصلاة وإطلاق البخور وذكر الله ، وضرب
له موعداً لقضاء هذه الحاجة شهراً كاملاً يأتي فيه هذا الأمر
في نظام ؛ فإن فسد هذا النظام فلا بد من استئناف الأمر
شهراً كاملاً آخر . وصدق الصبي صاحبه ، وأخذ يلح عليه
في كل يوم أن يخلو إلى النار ويردد الدعاء ، وأخذ الصبي
يستغل من صاحبه هذا الضعف ، ويكلفه ما شاء من مشقة
وعناء ، فإن أبي أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبنا أنه لن يخلو
إلى النار ، ولن يدعو « اللطيف » ولن يلمس العصا ، فيذعن
إذعاناً سريعاً .

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحده إلى السحر والتصوف ،
وإنما كان يدفع إلى ذلك دفعاً ، يدفعه إليه أبوه ؛ ذلك أن
الشيخ كان كثير الحاجات عند الله . كان له أبناء كثيرون ، وكان
يحرص على تعليمهم وتهذيبهم ، وكان فقيراً لا يستطيع أن

يُودِي نفقات ذلك التعليم ، وكان يَسْتَدِينُ من حين إلى حين
ويثقل عليه أداء الدين ، وكان يطمع في أن يزداد راتبه من حين
إلى حين ، وكان يطمع في أن يتقدم درجة وينتقل من عمل
إلى عمل . وكان يلتمس هذا كله عند الله بالصلاة والدعاء
والاستخارة . وكان أحب وسائل الالتماس إليه « عِدْيَةُ يَسَ » .

وكان يطلب « عِدْيَةَ يَسَ » هذه إلى ابنه الصبي ؛ لأنه صبي
ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين المزيّتين أثير عند الله رفيع المكانة
عنده . وهل يرضى الله أن يردّ صبيّاً مكفوفاً حين يطلب
إليه أمراً من الأمور متوسلاً بقراءة القرآن !!

وكانت « عِدْيَةُ يَسَ » مراتب : أولاها أن يخلو الإنسان
إلى نفسه فيقرأ هذه السورة من سور القرآن أربع مرات ، ثم
يطلب ما يشاء وينصرف . والثانية أن يخلو إلى نفسه فيتلو
هذه السورة سبع مرات ، ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثالثة
أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة إحدى وأربعين مرة
لا يفرغ من قراءتها مرة حتى يتبعها بدعاء يَسَ : « يا عصبه
الخير بخير الملل » ، فإذا أتم القراءة طلب ما شاء وانصرف .

والبخور محتوم في هذه المرة الثالثة . وكان الشيخ يكلف ابنه
 العديّة الصغرى في صغار الأمور ، والوسطى في الأمور
 الهامة ، والكبرى في الأمور التي تمس حياة الأسرة كلها .
 فإذا سعى في أن يدخل أحد أبنائه في المدرسة مجاناً فالعديّة
 الصغرى . وإذا التمس إلى الله أداء دين ثقیل فالعديّة الوسطى .
 وإذا رغب في أن ينتقل من عمل إلى عمل وأن يزداد راتبه
 جنيهاً أو بعض الجنيه فالعديّة الكبرى . وكان لكل عديّة
 أجر : فأما العديّة الصغرى فأجرها قطعة من السكر أو الحلوى .
 وأما العديّة الوسطى فأجرها خمسة مليات . وأما العديّة
 الكبرى فأجرها عشرة . وكثيراً ما خلا الصبي إلى نفسه وقرأ
 سورة يس أربعاً أو سبعاً أو إحدى وأربعين . ومن عجيب
 الأمر أن الحاجات كانت تقضى دائماً ! وما هي إلا أن تم
 اقتناع الشيخ بأن ابنه مبارك ، وبأنه أثير عند الله .
 ولم يكن أمر السحر والتصوف مقصوراً على قضاء الحاجات
 والتنبؤ بما سينجلي عنه الغيب ، وإنما كان يتجاوز هذا كله
 إلى دفع المكروه واتباع النكبات . وقد نسي الصبي أشياء

كثيرة، ولكنه لم ينس هذا الرعب الذي ملأ قلوب الناس جميعاً في المدينة وما حولها من القرى، حين وصلت إليهم الأخبار من القاهرة بأن نجماً ذا ذنب سيظهر في السماء بعد أيام؛ حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر مسَّ الأرض بطرف من ذنبه فإذا هي هشيم تذرره الرياح. فأما النساء وعامة الناس فلم يحفلوا بهذا أو لم يكادوا يحفلون به، وإنما كانوا يشعرون بشيء من الرعب كلما تحدثوا بهذه النازلة أو سمعوا الحديث عنها، ثم لا يلبثون أن ينصرفوا إلى ما هم فيه من حياة عملية. وأما المتفقهون في الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق وتلاميذهم فكانوا هلعين حقاً مرّوعين، لا تكاد تستقر قلوبهم بين جنوبهم، وكانوا يتحاورون في ذلك حواراً متصلاً؛ فمنهم من يزعم أن هذه الكارثة لن تقع؛ لأنها مخالفة لما عرف من أشراط الساعة. وما كان للأرض أن تفنى قبل ^{الطحنال} أن تظهر الدابة والنار والدجال، وقبل أن يهبط المسيح إلى الأرض فيملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً. ومنهم من كان يظن أن الكارثة من أشراط الساعة. ومنهم من كان يتحدث

صائمين

بأن هذه الكارثة قد تقع فتصيب الأرض بشيء من التدمير دون أن تأتي عليها جميعاً . كانوا يتحاورون طول النهار ، حتى إذا أقبل الليل وصليت المغرب اجتمعوا حلقاً في المسجد وأمام الدور ، وأخذوا يرددون هذه الكلمة : « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » حتى تَصَلَّى العشاء . وانقضت الأيام ، وجاءت الساعة المحتومة ، ولم يظهر في السماء نجم ذو ذنب ولم يصب الأرض دمار قليل ولا كثير . فانقسم المتفقهون في الدين وحملوا القرآن وأصحاب الطرق : فأما أهل العلم الذين يستمدون علمهم من الكتب وينتمون إلى الأزهر فاتصروا ، وقالوا : « ألم تقل لكم : إن هذه الكارثة لا يمكن أن تقع قبل أن تظهر أشراط الساعة ؟ ألم ندعكم إلى تكذيب المنجمين ؟ » . وأما حملة القرآن فقالوا : « كلا ! لقد كادت تقع الكارثة لولا أن لطف الله بالرُّضَع والحوامل والبهائم ، وسمع لدعاء الداعين ، وتضرع المتضرعين » . وأما أهل التصوف والعلم اللدني فقالوا : « كلا ! لقد كادت تقع الكارثة لولا أن توسط القطب المتولى بين الناس والله ، فصرف عن الناس هذا البلاء ، واحتمل عنهم أوزارهم » .

وأنت تستطيع أن تقول : إن هذا الدافع الذي كان يدفع
الناس إلى التحصن من « الخماسين » كان سحراً أو تصوفاً . أما
أنا فلا أستطيع إلا أن أحدثك بما يذكر الصبي من أن الأيام
التي كانت تسبق أيام شم النسيم كانت أياماً غريبة ، يخالط
فيها قلوب النساء والصبيان وحمة القرآن شيء من الفرح
والخوف . كانوا إذا أظلمهم يوم الجمعة أسرفوا في الأكل وفي
ألوان خاصة من الطعام ، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا في
أكل البيض الملون . وكان الفقهاء قد استعدّوا لهذا اليوم
استعداداً خاصاً ، فاشترّوا ورقاً أبيض صقيلاً ، وقطعوه قطعاً
صغاراً دقيقاً ، وكتبوا على كل قطعة « ال م ص » ثم يطوون
هذه القطع ويلتئون بها جيوبهم . حتى إذا كان يوم السبت
ألموا بالدور التي كانوا يتصلون بها ، ففارقوا هذه القطع من
الورق على أهلها ، وطلبوا إلى كل واحد أن يبتلع منها أربعاً
قبل أن يَلِمَ بطعام أو شراب . وكانوا يزعمون للناس أن ابتلاع
هذه القطع من الورق يصرف عنهم ما تأتي به « الخماسين »
من المكروه ، ويصرف عنهم الرمد بنوع خاص . وكان الناس

يصدّقونهم ويبتلعون هذا الورق ويؤدون إلى الفقهاء ثمنه بيضاً
أحمر وأصفر . وليس يدرى الصبي ماذا كان يصنع سيدنا بما
كان يجتمع له من البيض في يوم سبت النور ؛ فقد كان كثيراً
يتجاوز المئات . على أن استعداد الفقهاء لهذا اليوم لم يكن
يقف عند إعداد هذه القطع من الورق ، وإنما كان يتجاوز
ذلك إلى شيء آخر : كانوا يشترون الورق الأبيض الصقيل ،
ويقطعونه قطعاً طويلة عريضةً بمض العرض ، ويكتبون
عليها مخلفات النبي :

مُخَلَّفُ طِه سَبْحَتَانِ وَمُصْحَفٌ وَمُكْحَلَةُ سُجَادَتَانِ رَحَى عَصَا
حتى إذا فرغوا من هذه المخلفات أضافوا إليها دعاء آخر
يبتدئ بهذه الكلمات التي كان الفقهاء يقولون إنها سرّانية :
« دُبي دُبندي ، كُري كُرندي ، سَري سَرندي ، سَبر سَبربتونا ،
واحبسو البعيد عنا لا يأتينا ، والقريب منا لا يؤذينا ... الخ »
ثم يطوون هذه الأوراق على أنها حُجُبٌ وتأمم ، يفرّقونها
في البيوت على النساء والصبيان ، ويتقاضون أثمانها دراهم
وخبزاً وفطيراً وضروباً من الحلوى ، ويزعمون للناس أن اتخاذ

هذه التائم والحجب يدفع عنهم أذى هذه الشياطين التي
تحملها رياح الخماسين . وكان النساء يتلقين هذه الحجب
مطمئنات إليها ، ولكن ذلك لم يكن يمنعهن من اتقاء
العفاريت يوم شم النسيم بشق البصل وتعليقه على أبواب
الدور ، وأكل الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام

في هذا اليوم .

١٩٤٥

من هنا نعلم على قدر الأثر

وأراد الله أن يشقى « سيدنا » بتأميذه شقاء غير قليل ؛ فلم تكفه تلك الحوادث التي كانت تحدث من حين إلى حين عند ما كان الشيخ يمتحن الصبي ، ولم تكفه هذه النكبات المتصلة التي نشأت عن عناية الصبي بحفظ الألفية وغيرها من المتون ، وجعلت الصبي ثقيلاً سمجاً يتعالى على أترابه وعلى سيده ، ويرى لنفسه مكانة العاماء ويعصى أوامر العريف - لم يكفه هذا كله ، بل كانت نكبة أخرى لم يكن الرجل ينتظرها حقاً ، وكانت أشد عليه من كل النكبات الأخرى ، لأنها مسته في صناعته . ذلك أن رجلاً من أهل القاهرة هبط إلى المدينة في يوم من الأيام على أنه مفتش للطريق الزراعية . وكان هذا الرجل في متوسط عمره ، وكان « مطربشاً » يتكلم الفرنسية ، وكان يقول : إنه تخرج في مدرسة الفنون والصنائع ، وكان خفيف الظل جذاباً . فما لبث أن أحبه الناس ودعوه إلى

دورهم ومجالسهم . وما لبث أن اتصلت المودة بينه وبين أبي الصبي . وكان قد رتب « سيدنا » في بيته يقرأ له سورة من القرآن في كل يوم ، وجعل له عشرة قروش في كل شهر ، وهو الأجر المرتفع الذي كان يدفعه وجوه الناس . فكان سيدنا محباً لهذا الرجل مثنياً عليه . ولكن رمضان أقبل ، وكان الناس يجتمعون في ليالي رمضان عند رجل من أهل المدينة وجيهٍ يعمل في التجارة . وكان سيدنا يقرأ القرآن عند هذا الرجل طوال الشهر . وكان الصبي يرافق سيدنا ويريمه من حين إلى حين بقراءة سورة أو جزء مكانه . فقرأ ذات ليلة وسمعه هذا المفتش ، فقال لأبيه : إن ابنك لشديد الحاجة إلى تجويد القرآن . قال الشيخ : سيجوده متى ذهب إلى القاهرة على شيخ من شيوخ الأزهر . قال المفتش . فأنا أستطيع أن أجود له القرآن على قراءة حفص ، حتى إذا ذهب إلى الأزهر كان قد أتم بأصول التجويد ، وسهل عليه أن يفرغ للقراءات السبع أو العشر أو الأربع عشرة . قال الشيخ : وهل أنت من حملة القرآن ؟ قال المفتش : ومن المجودين ، ولولا أني

مشغول لاستطعت أن أقرأ ابنك القرآن على الروايات جميعاً ،
ولكنني أحب أن أخصص له ساعة في كل يوم فأقرئه رواية
حفص ، وأدرس له أصول الفن ، وأعدّه بذلك للأزهر إعداداً
صحيحاً . قال القوم : وكيف لمطربش يتكلم الفرنسية بحفظ
القرآن ورواية القراءات ؟ قال المفتش : أنا أزهرى تقدمت
في دراسة العلوم الدينية إلى مدى بعيد ، ثم انصرفت عنها إلى
المدارس فتخرجت في مدرسة الفنون والصنائع . قالوا : فأقرأ
لنا شيئاً . فنزع الرجل نعليه وتربّع ورتّل لهم سورة هود
ترتيلاً ما سمعوا مثله . فلا تسل عن إعجابهم به وإكبارهم إياه ،
ولا تسل عما أصاب سيدنا من الحزن والغيظ ؛ فقد قضى
الرجل ليلته كأنه مصعوق .

وأصبح الشيخ فأمر ابنه بأن يختلف إلى بيت المفتش في
كل يوم . وفرح الصبي بهذا فرحاً شديداً ، فأعاده على أثرابه
في الكتاب وتحدث به إلى الصبيان . ولا تسل عن مقدار
ما كان يترك هذا الحديث في نفس سيدنا من الحزن ؛ فقد
نهر الصبي وأمر ألا يذكر اسم المفتش مرة في الكتاب .

اجتمعوا على دق
الرشاء للزفر

وزهب الصبي إلى بيت المفتش ، واتصل ذهابه إلى هذا البيت ، وأقرأه المفتش « تحفة الأطفال » وشرح له أصول التجويد ، علمه المدّ والغنّ والإخفاء والإدغام وما يتصل بهذا كله . وكان الصبي معجباً بهذا العلم ، وكان يتحدث به إلى أترابه في الكتاب ، وكان يبين لهم أن سيدنا لا يحسن المدّ ولا يتقن الغنّ ، ولا يعرف الفرق بين المدّ الكلمي والحرفي ، ولا بين المدّ الثقيل والخفيف . وكانت أصداء هذا كله تصل إلى سيدنا فتغمره وتخزنه وتخرجه أحياناً عن طوره .

وأخذ الصبي يقرأ القرآن على المفتش من أوله ، وأخذ المفتش يعلمه مواضع الوقف والوصل ، وأخذ الصبي يقلّد المفتش في ترتيله ويحاكي نغمه ، وأخذ يقرأ القرآن على هذا النحو في الكتاب . وجعل أبوه يمتحنه ؛ فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أعجب وطرب وأثنى على المفتش . وما كان شيء يغبط سيدنا مثل ما كان يُغبطه هذا الثناء .

وقضى الصبي سنة كاملة يتردد على هذا البيت ويقرأ القرآن على المفتش حتى أتقن التجويد برواية حفص ، وكاد

يبدأ في رواية ورش لولا أن حدثت حوادث وسافر الصبي إلى القاهرة .

أ كان الصبي يحب الاختلاف إلى هذا البيت لأنه كان يُعجَّبُ بالمفتش ، ولأنه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده وعلى أن يعيظُ سيدنا ويظهر التفوق على أترابه ؟ نعم ! في الشهرين الأولين من هذه السنة ، فأما بعد هذين الشهرين فقد كان يجذبه إلى بيت المفتش ويحببه فيه شيء آخر كان المفتش متوسط العمر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها ، وكان قد تزوج من فتاة لم تبلغ السادسة عشرة ، ولم يكن له ولد ، ولم يكن يعمر بيته الكبير إلا هذه الفتاة وجدّة لها قد جاوزت الخمسين ، فأما حين بدأ الصبي يختلف إلى هذه الدار فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتفت إلى أحد غير المفتش . وما هي إلا أن كثر تردّد الصبي حتى أخذت الفتاة تتحدث إليه وتسأله عن نفسه وعن أمه وعن إخوته وعن داره ، وأخذ الصبي يحبها مستحيًا ، ثم متبسطًا ، ثم مطمئنًا ، واتصلت بين هذه الفتاة وهذا الصبي مودة ساذجة

كانت حلوة في نفس الصبي لذينة الموقع في قلبه ، وكانت
ثقيلة على نفس هذه الشيخة ، وكان المفتش يجملها جهلاً تاماً .
وأخذ الصبي يذهب إلى دار المفتش قبل الميعاد ليظفر
بساعة أو بعض ساعة يتحدث فيها إلى هذه الفتاة ، وأخذت
الفتاة تنتظره ، حتى إذا أقبل أخذته إلى غرفتها ، فجلست
وأجلسته وتحدثا . وما هي إلا أن استحال الحديث إلى لعب ،
إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً
لذيذاً . وقصّ الصبي هذا كله على أمه ، فضحكت ورثت
للفتاة قائلة لأخت الصبي : طفلة زوجت من هذا الشيخ
لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد ، فهي ضيقة الصدر في حاجة إلى
اللهو والمعبث .

ومن ذلك اليوم سعت أم الصبي في التعرف إلى هذه الفتاة
ودعتها إلى البيت وإلى أن تكثر التردد عليها .

وكذلك اتصلت أيام الصبي بين البيت والكتاب والمحكمة
 والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر ، لاهى
 بالحلوة ولاهى بالمرّة ، ولكنها تحلو حيناً وتمرّ حيناً آخر ،
 وتمضى فيما بين ذلك فطرة سخيّة . حتى كان يوم من الأيام
 ذاق الصبي فيه الألم حقاً ، وعرف منذ ذلك أن تلك الآلام
 التي كان يشقى بها ويكره من أجلها الحياة لم تكن شيئاً ، وأن
 الدهر قادر على أن يؤلم الناس ويؤذيهم ويحبب إليهم الحياة
 ويهون من أمرها على نفوسهم في وقت واحد . كانت للصبي
 أخت هي صغرى أبناء الأسرة ، كانت في الرابعة من عمرها .
 كانت خفيفة الروح طليقة الوجه فصيحة اللسان عذبة الحديث
 قوية الخيال ، كانت لهو الأسرة كلها ، كانت تخلو إلى نفسها
 ساعات طويلاً في لهو وعبث ، تجلس إلى الحائط فتتحدث
 إليه كما تتحدث أمها إلى زائراتها ، وتبعث في كل اللبّ التي

كانت بين يديها روحاً قوياً وتسبغ عليها شخصية . فهذه اللعبة امرأة ، وهذه اللعبة رجل ، وهذه اللعبة فتى ، وهذه اللعبة فتاة ، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعاً تذهب وتجيء ، وتصل بينها الأحاديث مرة في لهو وعبث . وأخرى في غيظ وغضب ، ومرة ثالثة في هدوء واطمئنان . وكانت الأسرة كلها تجذ لذة قوية في الاستماع إلى هذه الأحاديث والنظر إلى هذه الألوان من اللعب ، دون أن ترى الطفلة أو تسمع أو تحس أن أحداً يرقبها .

فما هي إلا أن أقبلت بوادع عيد الأضحى في سنة من السنين ، وأخذت أم الصبي تستعد لهذا العيد ، تهيئ له الدار وتعدُّ له الخبز وألوان الفطير ، وأخذ إخوة الصبي يستعدون لهذا العيد ، يختلف كبارهم إلى الخياط حيناً ، وإلى الحذاء حيناً آخر ، ويلهو صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار ، فينظر صبينا إلى أولئك وهؤلاء في شيء من الفلسفة كان قد تعودده ؛ فلم يكن في حاجة إلى أن يختلف إلى خياط أو حذاء ، وما كان ميالاً إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة ، وإنما كان يخلو

إلى نفسه ويعيش في عالم من الخيال يستمدّه من هذه القصص والكتب المختلفة التي كان يقرأها فيسرف في قراءتها .

أقبلت بوادر هذا العيد ، وأصبحت الطفلة ذات يوم في شيء من الفتور والهمود لم يكده يلتفت إليه أحد . والأطفال في القرى ومدن الأقاليم معرّضون لهذا النوع من الإهمال ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد وربة البيت كثيرة العمل . ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثماً . يشكو الطفل ، وقلماً تُعنى به أمه . . . وأى طفل لا يشكو ! إنما هو يوم وليلة ثم يفیق ويُبلى فإن عُنت به أمه فهي تزدري الطيب أو تجهله ، وهي تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء وأشباه النساء . وعلى هذا النحو فقد صيينا عينيّه ؛ أصابه الرمد فأهل أياماً ، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينيّه . وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة ؛ ظلت فاترة هامدة محمومة يوماً ويوماً ويوماً ، وهي ملقاة على فراشها في ناحية من نواحي الدار ، تُعنى بها أمها أو أختها من حين إلى حين ، تدفع إليها شيئاً من الغذاء الله يعلم

أ كان جيداً أم رديئاً . والحركة متصلة في البيت : يهياً الخبز
والفطير في ناحية ، وتنطفّ المنظرة وحجرة الاستقبال في
ناحية أخرى ، والصبيان في لهوهم وعبتهم ، والشبان في ثيابهم
وأحذيتهم ، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخر
النهار وأول الليل .

حتى إذا كان عصر اليوم الرابع وقف هذا كله فجأة .
وقف وعرفت أم الصبي أن شبحاً خيفاً يخلق على هذه الدار .
ولم يكن الموت قد دخل هذه الدار من قبل ، ولم تكن هذه
الأمُّ الحنون قد ذقت لذع الألم الصحيح . نعم ! كانت في
عملها وإذا الطفلة تصيح صياحاً منكراً ، فتدع أمها كل شيء
وتسرع إليها ، والصياح يتصل ويزداد ، فتدع أخوات الطفلة
كل شيء ويسرعن إليها . والصياح يتصل ويشد ، والطفلة
تتلوى وتضطرب بين ذراعي أمها ، فيدع الشيخ أصحابه
ويسرع إليها . والصياح يتصل ويشد ، والطفلة ترأد
ارتعاداً منكراً ويتقبض وجهها ويتصبب العرق عليه ،
فينصرف الصبيان والشبان عما هم فيه من لهو وحديث

ويسرعون إليها . ولكن الصباح لا يزداد إلا شدة ، وإذا
هذه الأسرة كلها واجهةً مبهوتةً محيطة بالطفلة لا تدري ماذا
تصنع ! . . . ويتصل ذلك ساعة وساعة . فأما الشيخ فقد
أخذ الضعف الذي يأخذ الرجال في مثل هذه الحال ، فينصرف
مهمماً بصلوات وآيات من القرآن يتوسل بها إلى الله . وأما
الشبان والصبيان فيتسللون في شيء من الوجوم لا يكادون
ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث ، ولا يكادون يستأنفونه .
هم كذلك حيارى في الدار ! وأمه جالسة واجهة تحديقاً في ابنتها
وتسقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هي ، والصباح متصل
مشتد ، والاضطراب مستمر متزايد .

ما كنت أحسب أن في الأطفال ولما يتجاوزوا الرابعة قوة
تعديل هذه القوة . وتأتي ساعة العشاء وقد مدّت المائدة ،
مدتها كبرى أخوات الصبي ، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا
إليها . ولكن صباح الطفلة متصل ، فلا تمُدُّ يد إلى طعام ، وإنما
يتفرقون جميعاً وترفع المائدة كما مدّت . والطفلة تصيح
وتضطرب ، وأما تحديقاً فيها حيناً وتبسط يدها إلى السماء

حيناً آخر ، وقد كشفت عن رأسها وما كان من عاداتها أن تفعل ! ولكن أبواب السماء كانت قد أغلقت في ذلك اليوم ، فقد سبق القضاء بما لا بدّ منه . فيستطيع الشيخ أن يتلو القرآن ، وتستطيع هذه الأم أن تتضرع . ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاء الناس جميعاً لم يفكر في الطبيب . وتقدّم الليل وأخذ صياح الفتاة يهدأ ، وأخذ صوتها يخفت ، وأخذ اضطرابها يخفّ ، وخيّل إلى هذه الأمّ التعمّسة أن قد سمع الله لها ولزوجها ، وأن قد أخذت الأزمة تنحلّ . وفي الحق أنّ الأزمة كانت قد أخذت تنحلّ ، وأن الله كان قد رأف بهذه الطفلة ، وأن خفوت الصوت وهدوء هذا الاضطراب كانا آتيا هذه الرأفة . تنظر الأم إلى ابنتها فيخيّل إليها أنها ستنام ، ثم تنظر فإذا هدوء متصل لا صوت ولا حركة ، وإنما هو نفسٌ خفيف شديد الخفة يتردّد بين شفتين مفتحتين قليلاً ، ثم ينقطع هذا النفس وإذا الطفلة قد فارقت الحياة .

ماذا كانت علّتها ؟ كيف ذهبت بحياتها هذه العلة ؟ الله وحده يعلم هذا .

وهنا يرتفع صياح آخر ويتصل ويشدد ، وهنا يظهر اضطراب آخر ويتصل ويشدد . ولكنه ليس صياح الطفلة ولا اضطرابها ، وإنما هو صياح هذه الأم وقد رأت الموت . واضطرابها وقد أحست الشُّكْل . وإذا الشبان والصبيان قد ماتوا رده فزعوا إلى أمهم وسبقهم إليها الشيخ . وإذا هي في جزع وهلع ينطق لسانها بألفاظ لا صلة بينها ، ويقطع الدمع صوتها تقطيعاً ، وإذا هي تلطم خديها في عنف متصل ، وزوجها مائل أمامها لا ينطق لسانه بحرف وإنما تنهر دموعه انهماراً . وإذا الجارات والجيران قد سمعوا هذا الصياح فأقبلوا مسرعين . فأما الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبل عزاءهم في قوة وجلد . وأما الشبان والصبيان فيتفرقون في الدار ، قد قست قلوب بعضهم فنام ، ورقّت قلوب بعضهم فسهروا . وأما الأم ففيما هي فيه من جزع وهلع ! أمامها ابنتها هامدة جامدة ، تولول وتخنس وجهها وتصلك صدرها ، ومن حولها بناتها وجاراتها يصنعن صنعها يولولن ويخنسن الوجوه ويصككن الصدور حتى ينقضى الليل كله .

وما أشدُّ نُكْرَ هذه الساعة التي أقبل فيها بعض الناس
واحتملوا الطفلة ومضوا بها إلى حيث لا تعود ! كان ذلك اليوم
يوم الأضحى ، وكانت الدار قد هيئت للعيد ، وكانت الضحايا
قد أُعدَّت . فيا له من يوم ! ويا لها من ضحايا ! ويا نُكْرَها من
ساعة حين عاد الشيخ إلى داره مع الظهر وقد وارى ابنته
في التراب ! ...

منذ ذلك اليوم اتصلت الأواصر بين الحزن وبين
هذه الأسرة ، فما هي إلا أشهر حتى فقد الشيخ أباه الهرم . وما
هي إلا أشهر أخرى حتى فقدت أم الصبي أمها الفانية . وإنما
هو حداد متصل وألم يقفو بعضه بعضاً ، منه اللاذع ومنه
المهادئ . حتى كان هذا اليوم المنكر الذي لم تعرف الأسرة
يوماً مثله ، والذي طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها ،
والذي ابيضَّ له شعر الأبوين جميعاً ، والذي قضى على هذه
الأم أن تلبس السواد إلى آخر أيامها ، وألا تذوق للفرح طعماً ،
ولا تضحك إلا ببكت إثر ضحكها ، ولا تنام حتى تريق بعض
الدموع ، ولا تقيق من نومها حتى تريق دموعاً أخرى ،

بعد ما
نكره مياثر

يتلو

ولا تطعم فاكهة حتى تُطعم منها الفقراء والصبيان ، ولا تبسم
لعيد ، ولا تستقبل يوم سرور إلا وهى كارهة راغمة .

كان هذا اليوم يوم ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢ . وكان
الصيف منكرًا فى هذه السنة . وكان وباء الكوليرا قد هبط
مصر ففتك بأهلها فتكًا ذريعًا : دمر مدناً وقرى ، ومحا
أسراً كاملة . وكان « سيدنا » قد أكثر من الحجب وكتابة
المخلفات ، وكانت المدارس والكتاتيب قد أُقفلت ، وكان
الأطباء ورسل مصلحة الصحة قد انبثوا فى الأرض ومعهم
أدواتهم وخيامهم يحجزون فيها المرضى ، وكان الهلع قد ملا
النفوس واستأثر بالقلوب ، وكانت الحياة قد هانت على
الناس ، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى
وتنتظر حظها من المصيبة . وكانت أم الصبي فى هلع مستمر ،
وكانت تسأل نفسها ألف مرة فى كل يوم بمن تنزل النازلة
من أبنائها وبناتها ! وكان لها ابن فى الثامنة عشرة ، جميل المنظر
رائع الطلعة نجيب ذكى القلب ، وكان أنجب الأسرة وأذكاهها
وأرقها قلبًا ، وأصفاها طبعًا ، وأبرها بأُمّه ، وأرافها بأبيه ،

وأرفقها بصغار إخوته وأخواته ، وكان مبتهجاً دائماً ، وكان قد
ظفر بشهادة « البكالوريا » وانتسب إلى مدرسة الطب ، وأخذ
ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة . فلما كان هذا الوباء
اتصل بطبيب المدينة وأخذ يرافقه ويقول : إنه يتمرن على
صناعته حتى كان يوم ٢٠ أغسطس .

أقبل الشاب آخر هذا اليوم كعادته باسمًا ، فلاطف أمه
وداعبها وهدأ من روعها وقال : لم تصب المدينة اليوم بأكثر
من عشرين إصابة ، وقد أخذت وطأة الوباء تخف ، ولكنه مع
ذلك شكنا من بعض الغثيان ، وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحده
كعادته ، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب
معه في كل يوم عند شاطئ إبراهيمية ، فلما كان أول الليل
عاد وقضى ساعة في ضحك وعبث مع إخوته . وفي هذه الليلة
زعم لأهل البيت جميعاً أن في أكل الثوم وقاية من الكوليرا ،
وأكل الثوم وأخذ كبار إخوته وصغارهم بالأكل منه ، وحاول
أن يقنع أبويه بذلك فلم يوفق .

وكانت الدار هادئة مفرقة في النوم كبارها وصغارها

الذي يستوعق
من يقنع

وحيوانها عند ما انتصف الليل . ولكن صيحة غريبة ملأت
هذا الجو الهادئ ، فهبَّ لها القوم جميعاً . فأما الشيخ وزوجته
فكانا في هذا الدهليز المنبسط الذي تظله السماء يدعوان ابنهما
باسمه . وأما الشبان من أهل الدار فكانوا يثبون من فراشهم
مسرعين إلى حيث الصوت . وأما الصبيان فكانوا يجلسون
يحكّون أعينهم بأيديهم يحاولون أن يتبينوا في شيء من الهلع
من أين يأتي الصوت وماذا كانت الحركة الغريبة !

وكان مصدر هذا كله صوت هذا الفتى وهو يعالج القىء . يستخرج
وكان الفتى قد قضى ساعة أو ساعتين يخرج من الحجرة على
أطراف قدميه ويمضي إلى الخلاء ليقىء مجتهداً ألا يوقظ أحداً .
حتى إذا بلغت العلة منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن
يقىء في لطف ، فسمع أبواه هذه الحشرة ففرعا لها ، وفزع
معهما أهل الدار جميعاً .

إذاً فقد أصيب الشاب ووجد الوباء طريقه إلى الدار ،
وعرفت أم الفتى بأى أبنائها تنزل النازلة . لقد كان الشيخ في
تلك الليلة خليقاً بالإعجاب حقاً . كان هادئاً رزيناً مروّعاً مع

ذلك ، ولكنه يملك نفسه . وكان في صوته شيء يدل على أن قلبه مفطور ، وعلى أنه مع ذلك جَلَدٌ مستعد لاحتمال النازلة . آوى ابنه إلى حجرته وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته ، وخرج مسرعاً فدعا جارين من جيرانه ، وماهى إلا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب .

صا^ل في أثناء ذلك كانت أمّ الفتى مروعة جلدة مؤمنة تُغنى بابنها . حتى إذا أمهله القى خرجت إلى الدهليز فرفعت يدها ووجهها إلى السماء وفنيت في الدعاء والصلاة ، حتى تسمع حشرة القى فتسرع إلى ابنها تسنده إلى صدرها وتأخذ رأسه بين يديها ، ولسانها مع ذلك لا يكف عن الدعاء والابتهاال .

ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبان وبين المريض ، فلوأا عليه الحجرة وأحاطوا به واجهين ، وهو يداعب أمه كلما أمهله القى ، ولعبت مع صغار إخوته . حتى إذا جاء الطبيب فوصف ما وصف وأمر بما أمر وانصرف على أن يعود مع الصبح ، لزمّت أمّ الفتى حجرة ابنها ، وجلس الشيخ قريباً من

هذه الحجرة واجماً لا يدعو ولا يصلى ولا يجيب أحداً من الذين كانوا يتحدثون إليه .

وأقبل الصبح بعد لآى ، وأخذ الفتى يشكو ألماً فى ساقيه . وأقبلت إليه أخواته يدلكن له ساقيه ، وهو يشكو صائحاً مرة كاتماً ألمه مرة أخرى ، والقيء يجهد ويخلع فى الوقت نفسه قلب أبويه . وقضت الأسرة كلها صباحاً لم تقض مثله قط : صباحاً واجماً مظلماً فيه شئ مفزع مروّع . فأما خارج الدار فكان يزدحم بالناس ، أقبلوا إلى الشيخ يواسونه . وأما داخل الدار فكان يزدحم بالنساء أقبلن يواسين أمّ الفتى . وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهؤلاء فى شغل . وكان الطبيب يتردد بين ساعة وساعة . وكان الفتى قد طلب أن يُبرق إلى أخيه الأزهرى فى القاهرة وإلى عمه فى أعلى الإقليم . وكان يطلب الساعة من حين إلى حين ينظر فيها كأنه يتعجل الوقت ، وكأنه يشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشاب وعمه الشيخ . يالها من ساعة منكرة ، هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢ .

انصرف الطبيب من الحجرة يائساً ، وكأنه قد أُسِرَ إلى
بحر من أجلب أصحاب الشيخ إليه بأن الفتى يُحْتَضَرُ ، فأقبل
الرجلان حتى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أمه . ظهرت في
هذا اليوم لأول مرة في حياتها أمام الرجال .

ينلوى والفتى في سريره يتصور : يقف ثم يلقى بنفسه ، ثم يجلس
ثم يطلب الساعة ، ثم يعالج القىء ، وأمّه واجمة ، والرجلان
يواسيانه وهو يحجبهما : لست خيراً من النبی ، أليس النبی
قد مات ! ويدعو أباه يريد أن يواسيه فلا يحبّه الشيخ . وهو
يقوم ويقعد ويلقى نفسه في السرير مرة ومن دون السرير مرة
أخرى ، وصبيّنا مُنزَوٍ في ناحية من هذه الحجرة ، واجم
كثيب دهش يمزّق الحزن قلبه تمزيقاً .

ثم ألقى الفتى نفسه على السرير وعجز عن الحركة ، وأخذ يئن
أنيباً يخفت من حين إلى حين . وكان صوت هذا الأنين يبعد
شيئاً فشيئاً . وإن الصبي لينسى كل شيء قبل أن ينسى هذه
الأننة الأخيرة التي أرسلها الفتى نحيلة ضئيلة طويلة ثم سكنت .
في هذه اللحظة نهضت أمُّ الفتى وقد انتهى صبرها ووهى



جلدُها ، فلم تكد تقف حتى هوت أو كادت ، وأسندها
الرجلان قمالكت نفسها وخرجت من الحجرة مطرقة ساعية
في هدوء ، حتى إذا جاوزتها انبعثت من صدرها شكاة
لا يذكرها الصبي إلا انخلع لها قلبه انخلاعا . واضطرب الفتى
قليلا ، ومرت في جسمه رعدة تبعها سكون الموت . وأقبل
الرجلان إليه فهياه وعصباه وألقيا على وجهه لثاما ، وخرجا إلى
الشيخ . ثم ذكرا أن الصبي منزو في ناحية من نواحي الحجرة ،
فعاد أحدهما إليه فجذبه جذبا وهو ذاهل حتى انتهى به إلى
مكان بين الناس فوضعه فيه كما يوضع الشيء .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى هيئ الفتى للدفن
وخرج الرجال به على أعناقهم .

فيا للقضاء ! ما كادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أول من لقي
النعش هذا العم الشيخ الذي كان الفتى يتمهل الموت دقائق ليراه .
من ذلك اليوم استقر الحزن العميق في هذه الدار ، وأصبح
إظهار الابتهاج أو السرور بأي حادث من الحوادث شيئا
ينبغي أن يتجنبه الشبان والأطفال جميعا .

من ذلك اليوم تعود الشيخ ألا يجلس إلى غدائه ولا إلى
عشائه حتى يذكر ابنه ويكيه ساعة أو بعض ساعة ، وأمامه
امراته تُعِينُهُ على البكاء ، ومن حوله أبنائوه وبناته يحاولون
تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئاً ، فيجهشون جميعاً
بالبكاء ..

ومن ذلك اليوم تعودت هذه الأسرة أن تعبر النيل إلى مقر
الموتى من حين إلى حين ، وكانت من قبل ذلك تعيب الذين
يزورون الموتى .

ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيراً تاماً . عرف الله
حقاً ، وحرص على أن يتقرب إليه بكل ألوان التقرب : بالصدقة
حيناً ، وبالصلاة حيناً آخر ، وبتلاوة القرآن مرة ثالثة . ولقد شهد
الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوف ولا إشفاق ولا إشار للحياة ،
ولكنه كان يعلم أن أخاه الشاب كان من أبناء المدارس ، وكان
يقصّر في أداء واجباته الدينية ؛ فكان الصبي يأتي ما يأتي من
ضروب العبادة يريد أن يحطّ عن أخيه بعض السيئات . كان
أخوه في الثامنة عشرة من عمره ، وكان الصبي قد سمع من الشيوخ

أن الصلاة والصوم فرض على الإنسان متى بلغ الخامسة عشرة .
فقدّر الصبي في نفسه أن أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة
أعوام كاملة ، وفرض الصبي على نفسه ليُصلّيَ الخمس في كل
يوم مرتين : مرة لنفسه ومرة لأخيه ! وليصوم من السنة
شهرين : شهراً لنفسه وشهراً لأخيه ، وليكتمن ذلك عن أهله
جميعاً ، وليجعلن ذلك عهداً بينه وبين الله خاصة ، وليطعمن
فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن
يأخذ بحظه منه . وشهد الله لقد وفى الصبي بهذا العهد شهراً
وما غير سيرته هذه إلا حين ذهب إلى الأزهر .

من ذلك اليوم عرف الصبي أرق الليل . فكم أنفق سواد
الليل كاملاً يفكر في أخيه أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف
المرات ثم يهب ذلك كله لأخيه ، أو ينظم شعراً على نحو هذا
الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه
وألمه لفقد أخيه ، معنياً بالألّا يفرغ من قصيدة حتى يصلّي في
آخرها على النبي ، واهباً ثواب هذه الصلاة لأخيه .

نعم ! ومن ذلك اليوم عرف الصبي الأحلام المروعة : فقد

كانت علة أخيه تتمثل له في كل ليلة ، واستمرت الحال كذلك أعواماً . ثم تقدّمت به السن ، وعمل فيه الأزهر عمله ، فأخذت علة أخيه تتمثل له من حين إلى حين ، وأصبح فتى ورجلاً وتقلّبت به أطوار الحياة ، وإنه لعلّ ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ ، يذكره ويراه فيما يرى النائم مرة في الأسبوع على أقل تقدير .

ولقد تعزّى عن هذا الفتى إخوته وأخواته ، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه ، وأخذت ذكره لا ترور أباه الشيخ إلا لماماً ، ولكن اثنين يذكرانه أبداً ، وسيدكرانه أبداً أول الليل من كل يوم : هما أمّه وهذا الصبي .

تأليف
أبو



« أما في هذه المرة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك ،
 وستصبح مجاوراً ، وستجتهد في طلب العلم . وأنا أرجو
 أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً ، وأراك من علماء
 الأزهر ، قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة
 واسعة بعيدة المدى . »

قال الشيخ ذلك لابنه آخر النهار في يوم من خريف
 سنة ١٩٠٢ ، وسمع الصبي هذا الكلام فلم يصدق ولم يكذب ،
 ولكنه آثر أن ينتظر تصديق الأيام أو تكذيبها له ؛ فكثيراً
 ما قال له أبوه مثل هذا الكلام ، وكثيراً ما وعده أخوه
 الأزهرى مثل هذا الوعد ، ثم سافر الأزهرى إلى القاهرة ،
 ولبت الصبي في المدينة يتردد بين البيت والكتّاب والمحكمة
 ومجالس الشيوخ .

وفي الحق أنه لم يفهم لماذا صدّق وعد أبيه في هذه السنة ،



والتألم من هذه المصيبة التي لا تترك لها راحة

فقد أخبر الصبي ذات يوم أنه مسافر بعد أيام . وأقبل يوم الخميس ، فإذا الصبي يرى نفسه يتأهب للسفر حقاً ، وإذا هو يرى نفسه في المحطة ولما تشرق الشمس . وهو يرى نفسه جالساً القرفصاء منكس الرأس كئيباً محزوناً ، ويسمع أكبر إخوته ينهره في لطف قائلاً له : لا تنكسر رأسك هكذا ، ولا تأخذ هذا الوجه الحزين فتحزن أخاك . ويسمع أباه يشجعه في لطف قائلاً : ماذا يحزنك ؟ أأنت رجلاً ؟ أأنت قادر أعلى أن تفارق أمك ؟ أم أنت تريد أن تلعب ؟ ألم يكفك هذا اللعب الطويل ؟

شهد الله ما كان الصبي حزيناً لفراق أمه ، وما كان الصبي حزيناً لأنه لن يلعب ، وإنما كان يذكر هذا الذي ينال من وراء النيل . كان يذكره ، وكان يذكر أنه كثيراً ما فكر في أنه سيكون معهما في القاهرة تلميذاً في مدرسة الطب . كان يذكر هذا كله فيحزن ، ولكنه لم يقل شيئاً ولم يظهر حزناً ، وإنما تكلف الابتسام . ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولأبكى من حوله أباه وأخويه .

وانطلق القطار ومضت ساعات ، ورأى صاحبنا نفسه في القاهرة بين جماعة من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه لخيّوه وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام .

وانقضى هذا اليوم ، وكان يوم الجمعة ، وإذا الصبي يرى نفسه في الأزهر للصلاة . وإذا هو يسمع الخطيب شيخاً ضخم الصوت عاليه ، فخم الرءاء والقافات ، لا فرق بينه وبين خطيب المدينة إلا في هذا . فأما الخطبة فهي ما كان تعود أن يسمع في المدينة . وأما الحديث فهو هو . وأما النعت فهو هو . وأما الصلاة فهي هي ليست أطول من صلاة المدينة ولا أقصر . وعاد الصبي إلى بيته ، أو قل إلى حجرة أخيه ، خائب الظن بعض الشيء . وسأله أخوه : ما رأيك في تجويد القرآن ودرس القراءات ؟ قال الصبي : لست في حاجة إلى شيء من هذا ، فأما التجويد فأنا أثقنه . وأما القراءات فلست في حاجة إليها . وهل درست أنت القراءات ؟ أليس يكفيني أن أكون مثلك ؟ إنما أنا في حاجة إلى العلم ، أريد أن أدرس الفقه والنحو والمنطق والتوحيد .

قال أخوه : حسبك ! يكفي أن تدرس الفقه والنحو في
هذه السنة .

وكان يوم السبت ، فاستيقظ الصبي مع الفجر ، وتوضأ
وصلّى ، ونهض أخوه فتوضأ وصلّى كذلك ، ثم قال له : ستذهب
معي الآن إلى مسجد كذا ، وستحضر درساً ليس لك وإنما
هو لي ، حتى إذا فرغنا من هذا الدرس ذهبت بك إلى الأزهر
فالتمت لك شيخاً من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ
العلم . قال الصبي : وما هذا الدرس الذي سأحضره ؟ قال أخوه
ضاحكاً : هو درس الفقه وهو ابن عابدين على الدرّ ، قال ذلك
يتلأ به فيه . قال الصبي : ومن الشيخ ؟ قال أخوه : هو الشيخ ...
وكان الصبي قد سمع اسم الشيخ ... ألف مرة ومرة ؛ فقد كان
أبوه يذكر هذا الاسم ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان
قاضياً للإقليم . وكانت أمّه تذكر هذا الاسم ، وتذكر أنها
عرفت امرأته فتاة هوجاء جلفة ، تتكاف زىّ أهل المدينة وماهى
من زىّ أهل المدن في شيء . وكان أبو الصبي يسأل ابنه
الأزهري كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه .

وكان ابنه الأزهرى يحدّثه عن الشيخ ومكاته في المحكمة العليا وحلقته التي تُعدّ بالمئات وكان أبو الصبي يلح على ابنه الأزهرى في أن يقرأ كما كان يقرأ الشيخ، فيحاول الفتى تقليده فيضحك أبوه في إعجاب وإكبار. وكان أبو الصبي يسأل ابنه: أيعرفك الشيخ؟ فيجيب الفتى: وكيف لا! وأنا ورفاقى من أخص تلاميذه وآثرهم عنده! نحضر درسه العام ثم نحضر عليه درساً خاصاً في بيته، وكثيراً ما تتعدّى لنعمل معه بعد ذلك في كتبه الكثيرة التي يؤلفها. ثم يعضى الفتى في وصف بيت الشيخ وحجرة استقباله ودار كتبه، وأبوه يسمع ذلك معجباً، حتى إذا خرج إلى أصحابه قص عليهم ما سمع من ابنه في شيء من التيه والفخار.

كان الصبي إذاً يعرف الشيخ، وكان سعيداً بالذهاب إلى حلقته والاستماع له. وكم كان مبتهجاً حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرخام ثم على هذا البساط الرقيق الذى فرش به المسجد! وكم كان سعيداً حين أخذ مكانه في الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرخام، لمسه

فأحب ملاسته ونعموته ، وأطال التفكير في قول أبيه : « إني لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً وأراك صاحب عمود في الأزهر » . وفيما هو يفكر في هذا ويتمنى أن يمس أعمدة الأزهر ليرى أهي كأعمدة هذا المسجد ، وللطلاب من حوله دوى غريب ، أحس أن هذا الدوى يخفت ثم ينقطع ، وغمره أخوه بيده قائلاً في صوت خافت : لقد أقبل الشيخ . اجتمعت شخصية الصبي كلها حينئذ في أذنيه وأنصت . ماذا يسمع ؟ يسمع صوتاً خافتاً هادئاً رزيناً ملؤه شيء قل إنه الكبير ، أو قل إنه الجلال ، أو قل إنه ماشئت ، ولكنه شيء غريب لم يحبه الصبي . ولبث الصبي دقائق لا يميز مما يقول الشيخ حرفاً . حتى إذا تعودت أذناه صوت الشيخ وصدى المكان سمع وتبين وفهم . وقد أقسم لي بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم . سمع الشيخ يقول : « ولو قال لها أنت طلاق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة ، وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ . » يقول ذلك متغنياً به مرتلاً له ترتيلاً في صوت لا يخلو من حشجة ، ولكن صاحبه يحتال أن يجعله عذبا ،

ثم يحتم هذا الغناء بهذه الكلمة التي أعادها طوال الدرس :
« فاهم يا أدع » وأخذ الصبي يسأل نفسه عن « الأدع » هذا
ما هو . حتى إذا انصرف عن الدرس سأل أخاه : ما الأدع ؟
ففقّقه أخوه وقال . الأدع الجدع في لغة الشيخ .
ومضى به بعد ذلك إلى الأزهر ، فقدّمه إلى أستاذه الذي
علمه مبادئ الفقه والنحو سنة كاملة .



إنك يا ابنتي لساذجة سليمة القلب طيبة النفس .
 أنت في التاسعة من عمرك ، في هذه السن التي يُعْجَبُ
 فيها الأطفال بآبائهم وأمهاتهم ، ويتخذونهم مُثُلًا عليا في
 الحياة : يتأثرونهم في القول والعمل ، ويحاولون أن
 يكونوا مثلهم في كل شيء ، ويفخرون بهم إذا تحدثوا
 إلى أقرانهم أثناء اللعب ، ويَحْتَلِّ إليهم أنهم كانوا أثناء
 طفولتهم كما هم الآن مُثُلًا عليا يصلحون أن يكونوا قدوة
 حسنة وأسوة صالحة .

أليس الأمر كما أقول ؟ أأست ترين أن أباك خير الرجال
 وأكرمهم ؟ أأست ترين أنه قد كان كذلك خير الأطفال
 وأنباههم ؟ أأست مقتنعة أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً
 مما تعيشين ؟ أأست تحبين أن تعيشي الآن كما كان يعيش
 أبوك حين كان في الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإن أباك يبذل

من الجهد ما يملك ، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق ،
ليجنبك حياته حين كان صبيّاً .

لقد عرفته يا ابنتي في هذا الطور من أطوار حياته . ولو أنى
حدّثتك بما كان عليه حينئذ لكذبت كثيراً من ظنك ،
ولخيت كثيراً من أملك ، ولفتحت إلى قلبك الساذج ونفسك
الحلوة باباً من أبواب الحزن ، حرام أن يفتح إليهما وأنت في
هذا الطور اللذيذ من الحياة . ولكنى لن أحدثك بشيء مما
كان عليه أبوك في ذلك الطور الآن . لن أحدثك بشيء من
هذا حتى تتقدّم بك السن قليلاً ، فتستطيعي أن تقرّئي وتفهمي
وتحكمي ، ويومئذ تستطيعين أن تعرفي أن أباك أحبك حقاً ،
وجدّ في إسعادك حقاً ، ووفّق بعض التوفيق لأن يجنبك
طفولته وصباه .

نعم يا ابنتي ! لقد عرفت أباك في هذا الطور من حياته .
وإنى لأعرف أن في قلبك رقة وليناً . وإنى لأخشى لوحدّثتك
بما عرفت من أمر أليك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك
الرأفة فتجهشي بالبكاء .

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر أبيض وهو يقص عليك قصة «أوديب ملكاً» وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لا يدري كيف يسير، وأقبلت ابنته «أنتيجون» فقادته وأرشدته. رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من أولها، ثم أخذ لونك يتغير قليلاً قليلاً، وأخذت جبهتك السمحة تبرد شيئاً فشيئاً، وما هي إلا أن أجهشت بالبكاء وانكبت على أبيض لثماً وتقيلاً، وأقبلت أمك فانتزعتك من بين ذراعيه، وما زالت بك حتى هدأ روعك. وفهمت أمك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضاً أنك إنما بكيت لأنك رأيت أوديب الملك كأبيض مكفوفاً لا يبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده، فبكيت لأبيض كما بكيت «لأوديب».

نعم ! وإني لأعرف أن فيك عبث الأطفال وميلهم إلى اللهو والضحك وشيئاً من قسوتهم. وإني لأخشى يا ابنتي إن حدثتك بما كان عليه أبوك في بعض أطوار صباه أن تضحكي منه قاسية لاهية، وما أحب أن يضحك طفل من

أبيه ، وما أحب أن يلهو به أو يقسو عليه . ومع ذلك فقد
عرفت أبلك في طور من أطوار حياته أستطيع أن أحدثك به
دون أن أثير في نفسك حزناً . ودون أن أغريك بالضحك
أو اللهو .

عرفته في الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة
ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر : إن كان في ذلك الوقت
لصبي جدّ وعمل . كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزيّ أقرب
إلى الفقر منه إلى الغنى ، تقتمحه العين اقتحاماً في عباة القذرة
وطاقيته التي استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفي هذا القميص
الذي يبين من تحت عباة وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة
ما سقط عليه من الطعام ، وفي نعليه الباليين المرقعتين .
تقتمحه العين في هذا كله ، ولكنها تبسم له حين تراه على
ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف ، واضح الجبين مبتسم
الثغر مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد
في مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظامة التي تغشى عادة
وجوه المكفوفين . تقتمحه العين ولكنها تبسم له وتلاحظه

في شيء من الرفق ، حين تراه في حلقة الدرس مصغياً كله
إلى الشيخ يلتهم كلامه اتهاماً ، مبتسماً مع ذلك لا متألماً ولا
متبرماً ولا مظهرأً ميلاً إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من
حوله أو يشرّبون إلى اللهو .

عرفته يا ابنتي في هذا الطور . وكم أحب لو تعرفينه
كما عرفته ! إذاً تقدرين ما بينك وبينه من فرق . ولكن
أنّى لك هذا وأنت في التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها
نعياً وصفواً ! .

عرفته ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل
إلا لوناً واحداً ، يأخذ منه حظه في الصباح ويأخذ منه
حظه في المساء ، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجهداً ،
ولا مفكراً في أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذت
يا ابنتي من هذا اللون حظاً قليلاً في يوم واحد لأشفقت
أُمك ولقدّمت إليك قدحاً من الماء المعدنى ، ولا تتظرت أن
تدعو الطيب .

لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على

خبز الأزهر . وويل للأزهريين من خبز الأزهر ! إن كانوا
ليجدون فيه ضروباً من القش وألواناً من الحصى وفنونا
من الحشرات .

وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز
إلا في العسل الأسود . وأنت لا تعرفين العسل الأسود ،
وخير لك ألا تعرفيه .

كذلك كان يعيش أبوك جاداً مبتسماً للحياة والدرس ،
محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان . حتى إذا انقضت السنة وعاد
إلى أبويه ؛ وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟
أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص ؛
فيحدثهما بحياة كلها رغد ونعيم . وما كان يدفعه إلى
هذا الكذب حب الكذب ، إنما كان يرفق بهذين الشيخين
ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان . وكان يرفق بأخيه
الأزهري ، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من
اللبن . كذلك كانت حياة أبيك في الثالثة عشرة من عمره .
فإن سألتني كيف انتهى إلى حيث هو الآن ؟ وكيف

أصبح شكله مقبولاً لا تقتحمه العين ولا ترذيره ؟ وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أتما فيه من حياة راضية ، وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضيغنة ، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع ؟ — إن سألت كيف انتقل متى تلك الحال إلى هذه الحال ، فلست أستطيع أن أجيبك ! وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب ، فسليله ينبئك .

أتعرفينه ؟ أنظري إليه ! هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج . ألسنت مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وسهجة النهار ؟ !

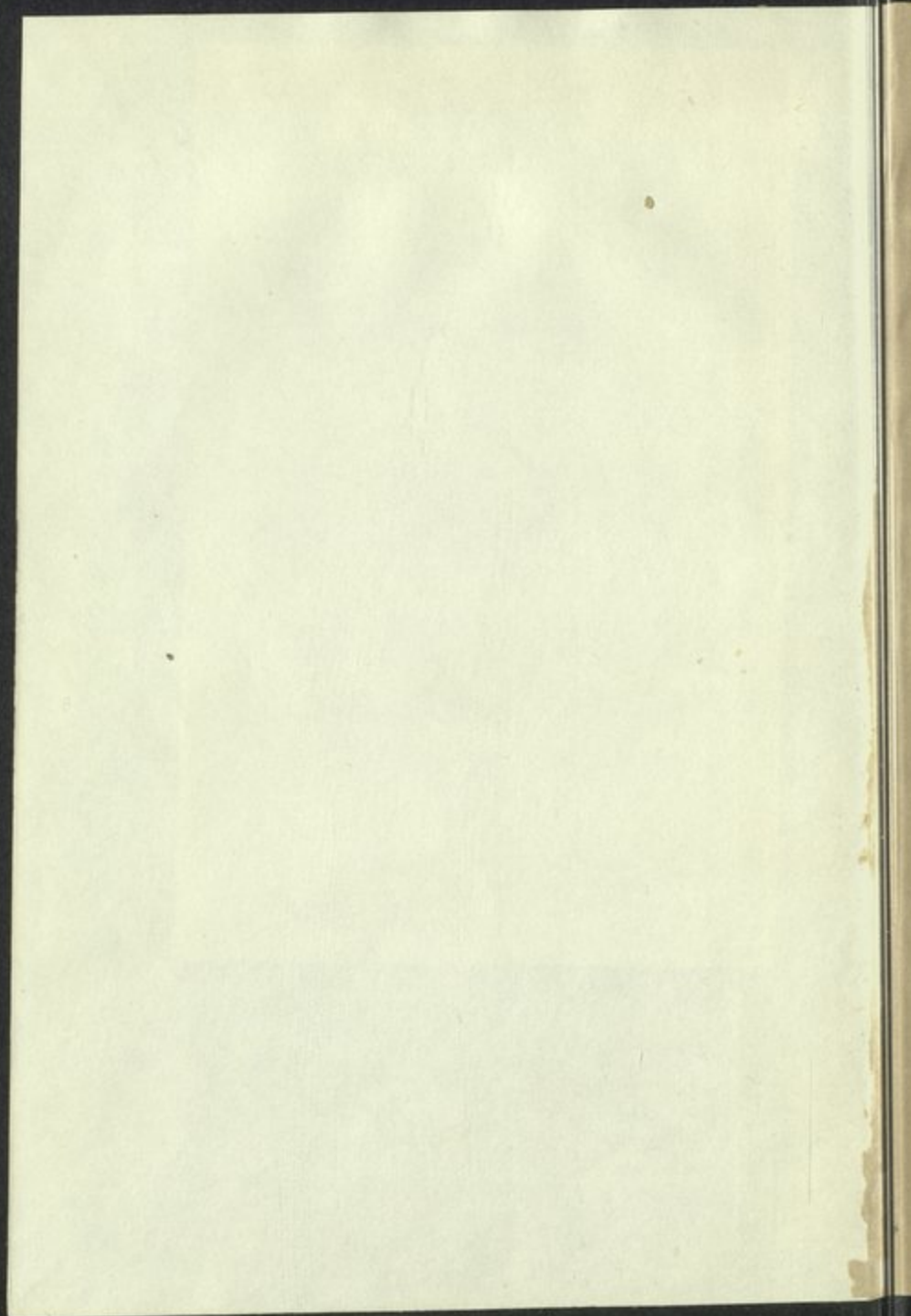
لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أهلك ، فبدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا .

ليس دين أيبك لهذا الملك بأقل من دينك . فلتعاوننا
يا ابنتي على أداء هذا الدين ، وما أتما ببالعين من ذلك بعض
ما تريدان مـ

طه حسين



1957/2101



DATE DUE

U.B. LIBRARY



A.U.B. LIBRARY

892.78110654841132

الأيام

الأيام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01041132



892.78
Ha3924 a A
1947
V.1